حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

رِجَالُ الفِكْرِ وَالدَّعْوَةِ

فِي الإِسْلَامِ

الجزء الأول

عمر بن عبد العزيز — أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه
الحسن البصري وخلفاؤه — الإمام الغزالي
أحمد بن حنبل — الإمام عبد القادر الجيلاني
جلال الدين الرومي

بقلم الداعية الحكيم
السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

تقديم

الدكتور مصطفى السباعي — الدكتور عدنان زرزور

دار القلم
دمشق

الانحطاط في علم الكلام

وازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة إلى متكلم جديد

المحاضرة السابعة

الانحطاط في علم الكلام

وازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة إلى متكلم جديد

الانحراف والانحطاط في علم الكلام:

إنَّ مدرسة الأشعري الفكرية، وإنْ كانت لا تزالُ مهيمنةً على العالم الإسلامي، وعلى مناهج التعليم، وعلى الحياة الدينية؛ ولكنها قد فقدت حيويتها ونشاطها الفكري، وضعف إنتاجها في الزمن الأخير ضعفاً شديداً، وبدت فيها آثار الهرم والإعياء.

لقد استطاع أبو الحسن الأشعري بشخصيته القوية، وعقله الكبير، وابتكاره، أن يهزم المعتزلة في معترك العلم والعقل، ويغيِّرَ اتجاه الطبقة المثقفة في عصره، والفضل في ذلك لا يرجع إلى أصوله وقواعده، ولا إلى نظرياته وعقائده فحسب، فيمكن أن تناقش في ضوء العلم، ويمكن أن لا يقتنع ببعضها باحثٌ ومتأمِّلٌ، ولكنَّه يرجع كذلك إلى مواهبه العظيمة، ونبوغه، وعبقريته، وملكته القوية في الاستدلال، وقد كانت هذه المدرسة في حاجةٍ دائمةٍ إلى شخصياتٍ قويةٍ جديدةٍ، تحفظ مكانتها ومركزها في العالم الإسلامي، وتجدد حياتها ونشاطها، وفي حاجةٍ دائمةٍ إلى إنتاجٍ جديدٍ، وبعثٍ وتجديدٍ، وابتكار مزيد.

ولكنَّ ذلك لم يكن مع الأسف؛ فقد طغى التقليدُ على تلاميذ هذه المدرسة، وأصبحوا عيالاً على ما أنتجه الإمام أبو الحسن الأشعري وبعض خلفائه، وقفوا عنده، وعضوا عليه بالنواجذ، وأصبح علم الكلام علماً متناقلاً، يتناقله الخلف عن السلف، والتلاميذ عن الأساتذة، **وقد شعر بعضهم بأنَّ الزمان قد تطوَّرَ، والعلم قد تقدَّمَ، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبها في الاستدلال في علم الكلام، ولم يحسن صنعاً؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ الفلسفيَّ لا يورثُ الإذعان**

في القلوب، كما يفعل أسلوبُ القرآن الطبيعي، وليس له سحرٌ في النفوس، ولا إقناعٌ كإقناع القرآن؛ ولأنَّ هذه المقدمات والدلائل الفلسفية مثار بحثٍ وجدالٍ كبيرٍ، ولا يفيد العلم القطعي، وكانت معرَّضةً للنقض والرد.

وهكذا لم يحسنوا تمثيلَ مذهب أهل السنة، ومسلك السلف، ولم يحسنوا إليهما، ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية وإجلالها كذلك: إذ كانت تعتقدُ أنَّ هذه المصطلحات والمقدمات استُغِلَّتِ استغلالاً، ولم تهضم هضماً صحيحاً.

شيوع الفلسفة في العالم الإسلامي:

وقد انتقلت إلى العربية (بتوجيه المأمون الذي كان من هواة الفلسفة، وبجهد المترجمين[1]) كتبٌ كثيرةٌ في المنطق والفلسفة، من السريانية واليونانية والفارسية، وكان أكثرها لأرسطو، وكان فيها كتب المنطق، وكتبٌ في الطبيعيات والعنصريات والرياضيات، وهي كتبٌ وعلومٌ يحسُنُ الانتفاع بها. ولا يُخاف منها على العقيدة الإسلامية؛ إذ لا صلة لها بالديانات والشرائع. وفيها كتبٌ في الإلٰهيات والميتافيزيقا.

والحق أنَّ هذه البحوث في الإلٰهيات إنما هو علم الأصنام عند اليونان، وما هي إلا وثنيتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية، وأضفوا عليها صبغةً من الفن، وما العقول والأفلاك إلا رموزاً للوثنية الإغريقية القديمة، وما أفعالها وحركاتها وتصرُّفاتها إلا عقائد توارثتها الأجيال عندهم، ووثنية تعارضُ التوحيد، وتحلّ محلَّ عقيدة الصفات الإلٰهية.

وتشتمل هذه الفلسفة التي بهرت المسلمين، وتسلَّطت على عقولهم من غير حق ومن غير جدارةٍ، على ظنونٍ وتخميناتٍ، وطلاسم لفظيةٍ، لا حقيقة لها ولا معنى، ولا وجود لها في الخارج. وقد كانت الأمة التي أكرمها الله بالنبوة المحمدية، ومنحها العلم الصحيح، الذي لا كدر فيه ولا تخمين، العلم الصحيح بالذات والصفات، والمبدأ والمعاد.

---

(١) وأغلبهم من النصارى. (الناشر)

لقد كانت هذه الأمة في غنًى عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية، والتدقيق فيها؛ ولكنَّ الذين بهرتهم براعةُ اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات أقبلوا على هذه الفلسفة الإلٰهية في شيءٍ من التمجيد والتقديس، وتلقوها كصحيفةٍ سماويةٍ، كأنَّهم لا عهد لهم بالرسالة والبعثة المحمدية، وكأنَّهم ليسوا أصحاب كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وكأنَّهم أمةٌ جاهليةٌ فقيرةٌ في المعاني الدينية والحقائق الإلٰهية.

الفلسفة اليونانية في الإسلام:

كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحُسنِ حظِّها، أن رُزقت رجالاً أذكياءَ تطوَّعوا لنشر الفلسفة وشرحها، وجنَّدوا في سبيلها نفوسهم ومواهبهم، كيعقوب الكندي (م٢٥٨هـ) وأبي النصر الفارابي (م٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (م٤٢٨هـ) وكانوا في حماستهم في الدفاع عن الفلسفة ونشرها في الأمة الإسلامية، وفي إخلاصهم لهذه الفلسفة وتمجيدهم لها، وتقديسهم لأرسطو لا يقلّون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم، وكانوا يجهلون اللغات التي أُلِّفت فيها هذه الكتب، ودُوِّنت فيها هذه الأفكار، وكانوا غير قادرين على الانتفاع بالمصادر الأصلية مباشرةً؛ فكانوا عيالاً على من ينقلها لهم من السريانية واليونانية، ووقعوا في أخطاء وأوهام في فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانيين، وقد منعهم إجلالُهم لأرسطو، وتقديسهم له، من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد، فأخذوها على عِلاَّتها، وعكفوا عليها دراسةً وشرحاً وإيضاحاً وبياناً، وحوَّلوا العلوم العقلية إلى نقلية يتناقلونها ويتوارثونها.

الفرق بين المعتزلة والفلاسفة:

وهنا حقيقةٌ يجب أن نقررها: إنَّ المعتزلةَ وإن أفرطوا في تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة في الدين، واتَّجهوا بالأمة ذات النبوة والكتاب والتعاليم اتجاهاً كان يبعدها عن وضعها الصحيح، وروحِها الحقيقية؛ ولكن مما لا شكَّ فيه، أنَّ طبيعة المعتزلة كانت طبيعةً دينيةً، وكانوا يفكِّرون التفكير الديني، كانوا يؤمنون بالنبوة والوحي، وكانوا في حياتهم متقشِّفين زهَّاداً، يحترزون عن المعاصي، ويلتزمون العبادات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان كلُّ ذلك

في القلوب، كما يفعل أسلوبُ القرآن الطبيعي، وليس له سحرٌ في النفوس، ولا إقناعٌ كإقناع القرآن؛ ولأنَّ هذه المقدمات والدلائل الفلسفية مثار بحثٍ وجدالٍ كبيرٍ، ولا يفيد العلم القطعي، وكانت معرَّضةً للنقض والرد.

وهكذا لم يحسنوا تمثيلَ مذهب أهل السنة، ومسلك السلف، ولم يحسنوا إليهما، ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية وإجلالها كذلك: إذ كانت تعتقدُ أنَّ هذه المصطلحات والمقدمات استُغِلَّتِ استغلالاً، ولم تهضم هضماً صحيحاً.

شيوع الفلسفة في العالم الإسلامي:

وقد انتقلت إلى العربية (بتوجيه المأمون الذي كان من هواة الفلسفة، وبجهد المترجمين[1]) كتبٌ كثيرةٌ في المنطق والفلسفة، من السريانية واليونانية والفارسية، وكان أكثرها لأرسطو، وكان فيها كتب المنطق، وكتبٌ في الطبيعيات والعنصريات والرياضيات، وهي كتبٌ وعلومٌ يحسُنُ الانتفاع بها. ولا يُخاف منها على العقيدة الإسلامية؛ إذ لا صلة لها بالديانات والشرائع. وفيها كتبٌ في الإلٰهيات والميتافيزيقا.

والحق أنَّ هذه البحوث في الإلٰهيات إنما هو علم الأصنام عند اليونان، وما هي إلا وثنيتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية، وأضفوا عليها صبغةً من الفن، وما العقول والأفلاك إلا رموزاً للوثنية الإغريقية القديمة، وما أفعالها وحركاتها وتصرُّفاتها إلا عقائد توارثتها الأجيال عندهم، ووثنية تعارضُ التوحيد، وتحلّ محلَّ عقيدة الصفات الإلٰهية.

وتشتمل هذه الفلسفة التي بهرت المسلمين، وتسلَّطت على عقولهم من غير حق ومن غير جدارةٍ، على ظنونٍ وتخميناتٍ، وطلاسم لفظيةٍ، لا حقيقة لها ولا معنى، ولا وجود لها في الخارج. وقد كانت الأمة التي أكرمها الله بالنبوة المحمدية، ومنحها العلم الصحيح، الذي لا كدر فيه ولا تخمين، العلم الصحيح بالذات والصفات، والمبدأ والمعاد.

---

(١) وأغلبهم من النصارى. (الناشر)

لقد كانت هذه الأمة في غنًى عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية، والتدقيق فيها؛ ولكنَّ الذين بهرتهم براعةُ اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات أقبلوا على هذه الفلسفة الإلٰهية في شيءٍ من التمجيد والتقديس، وتلقوها كصحيفةٍ سماويةٍ، كأنَّهم لا عهد لهم بالرسالة والبعثة المحمدية، وكأنَّهم ليسوا أصحاب كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وكأنَّهم أمةٌ جاهليةٌ فقيرةٌ في المعاني الدينية والحقائق الإلٰهية.

الفلسفة اليونانية في الإسلام:

كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحُسنِ حظِّها، أن رُزقت رجالاً أذكياءَ تطوَّعوا لنشر الفلسفة وشرحها، وجنَّدوا في سبيلها نفوسهم ومواهبهم، كيعقوب الكندي (م٢٥٨هـ) وأبي النصر الفارابي (م٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (م٤٢٨هـ) وكانوا في حماستهم في الدفاع عن الفلسفة ونشرها في الأمة الإسلامية، وفي إخلاصهم لهذه الفلسفة وتمجيدهم لها، وتقديسهم لأرسطو لا يقلّون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم، وكانوا يجهلون اللغات التي أُلِّفت فيها هذه الكتب، ودُوِّنت فيها هذه الأفكار، وكانوا غير قادرين على الانتفاع بالمصادر الأصلية مباشرةً؛ فكانوا عيالاً على من ينقلها لهم من السريانية واليونانية، ووقعوا في أخطاء وأوهام في فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانيين، وقد منعهم إجلالُهم لأرسطو، وتقديسهم له، من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد، فأخذوها على عِلاَّتها، وعكفوا عليها دراسةً وشرحاً وإيضاحاً وبياناً، وحوَّلوا العلوم العقلية إلى نقلية يتناقلونها ويتوارثونها.

الفرق بين المعتزلة والفلاسفة:

وهنا حقيقةٌ يجب أن نقررها: إنَّ المعتزلةَ وإن أفرطوا في تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة في الدين، واتَّجهوا بالأمة ذات النبوة والكتاب والتعاليم اتجاهاً كان يبعدها عن وضعها الصحيح، وروحِها الحقيقية؛ ولكن مما لا شكَّ فيه، أنَّ طبيعة المعتزلة كانت طبيعةً دينيةً، وكانوا يفكِّرون التفكير الديني، كانوا يؤمنون بالنبوة والوحي، وكانوا في حياتهم متقشِّفين زهَّاداً، يحترزون عن المعاصي، ويلتزمون العبادات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان كلُّ ذلك

بحكم عقائدهم التي يدينون بها، ورأيهم الذي يرونه، فكانوا يرون أنَّ مرتكبَ الكبيرة مخلَّدٌ في النار، وأنَّ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر فريضةٌ، وكانوا متحمِّسين نشيطين في خدمة الإسلام ونشره، ومحاربة الملحدين؛ فلم يكن نتيجة انتشار الاعتزال وسلطة المعتزلة أن انتشر الكفر والإلحاد في المجتمع الإسلامي، وفشا إنكار النبوَّات، وإنكار المعاد، والميل إلى الإباحية والتعطل؛ بل بقي المعتزلة وبقي الشعور الديني في المسلمين حياً قوياً.

ولكنَّ الفلاسفة يختلفون في ذلك اختلافاً أساسياً، فالفلسفة تتنافى مع النبوة وتعارضها في خطٍ مستقيمٍ، إنَّها تنحرف عن النبوة في النقطة الأولى، ثم لا تلتقيان، فكان طبيعياً أنه كلَّما ازداد الناس إقبالاً على الفلسفة وإجلالاً لها، ازدادوا انصرافاً عن الدين واستخفافاً به، وكلَّما ازداد الناس خضوعاً للفلاسفة، ازدادوا استهانةً بالأنبياء صلوات الله عليهم، وما من ناحيةٍ من نواحي الحياة الدينية إلا وقد تأثرت بهذا التحوّل الفكري، ووُجدت في المسلمين طبقةٌ تستهزئ بالدين وتزدريه، وتتمجَّدُ بخروجها عن ربقة الدين، وتحررها من تكاليفه وعقائده، في غير كتمانٍ، وفي غير احتشامٍ، ومنهم من لا يملكُ شجاعةً أدبيةً تحمله على هذا الإعلان؛ فكانوا يظهرون في المظهر الإسلامي وهم يبطنون الكفر والإلحاد.

فتنة الباطنية:

ونشأت مع الفلسفة وازدهارها فتنةٌ جديدةٌ، كانت أضرَّ على الإسلام وتعاليم النبوَّة من الفلسفة، تلك **فتنة الباطنية**، وقد كان معظم دعاتها **أفراداً وأمماً وشعوباً قد فقدت سيادتها وحكمها في تيار الفتوح الإسلامية**، ولا مطمعَ لها في استردادها بالحروب والمقاومة المادية، **أو رجالاً يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالإباحية وعبادة النفس**، والإسلامُ يحدُّ من شهواتهم، ويقيّدُ حرياتهم. **أو رجالاً يطمحون إلى السلطة المطلقة**، والسيادة الكبيرة.

وقد اجتمعت هذه الأضراب من الناس تحت راية الباطنية، والتفّوا حولها؛ إذ هي الراية التي تجمعهم وتمنِّيهم بالوصول إلى غاياتهم.

وقد شعر هؤلاء أنَّ الإسلام ـ وهو لا يزال قوياً ـ لا يُهزم في ميدان الحرب،

وأنَّ المسلمين ـ وهم أصحاب عاطفةٍ دينيةٍ قويةٍ ـ لا تصحُّ دعوتهم إلى الإلحاد السافر، والكفر البواح، فإنَّ هذا يشعِلُ عاطفتهم الدينية، ويلهبُ غيرتهم، ويثير فيهم روحَ المقاومة؛ فتضيع الفرصة، ويفلت الزِّمام؛ ولذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم، إنهم اتخذوا للوصول إلى غايتهم نفقاً.

الفرق بين الظاهر والباطن:

إنَّهم لاحظوا أنَّ أصول الديانة الإسلامية وعقائدها وأحكامها ومسائلها، إنما عرضت في إطار ألفاظٍ وكلماتٍ تدل عليها، وتعبِّرُ عنها، وكان لا بدَّ من ذلك عند كل رسالةٍ جديدةٍ، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد تعينت معاني هذه الكلمات ومفاهيمها؛ وتواتر ذلك عملياً ولفظياً في الأمة واستفاض، وعرفته الأمة الإسلامية، ودانت به.

فكلٌّ من كلمات (النبوة) و(الرسالة) و(الملائكة) و(المعاد) و(الجنة) و(النار) و(الشريعة) و(الفرض) و(الواجب) و(الحلال) و(الحرام) و(الصلاة) و(الزكاة) و(الصوم) و(الحج) تؤدي معنًى خاصاً؛ وتفهم منها مفاهيمُ خاصةٌ لا يشكُّ فيها مسلمٌ، ولا يختلف فيها اثنان.

وكما أنَّ هذه الحقائق الدينية ـ التي تعبِّر عنها هذه الكلمات ـ ظلت محفوظةً في الأمة، تتوارثها الأجيال، وتنتقل مع الزمان، كذلك ظلَّت هذه الكلمات ثروةً محفوظةً لم تعبث بها يد التحريف، وقد أصبح كلٌّ منها لازماً وملزوماً لصاحبه.

فإذا أطلقت كلمة (الصلاة) مثلاً انتقل الذهن إلى هيئة عبادةٍ خاصةٍ، فيها قيامٌ وركوعٌ وسجودٌ وقراءةٌ وتسليمٌ إلى غير ذلك مما يدخل في أركان الصلاة وأجزائها وأوضاعها، وكذلك إذا أطلقت كلمة (النبوّة) أو (المعاد) تعيّنَ منهما ذلك المفهوم الإسلامي الذي يفهمه المسلمون ويدينون به.

لقد أدرك الباطنية بذكائهم **أن هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها أساسٌ تقوم عليه الحياة الإسلامية، والهيكل الفكري والعملي في حياة المسلمين، ولهذه الصلة تدينُ الوحدة الدينية والفكرية التي يمتاز بها المسلمون.**

وعن طريق هذه الصلة يتصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية، فإذا انقطعت هذه الصلة ـ بين الكلمات والمعاني ـ وأصبحت الكلمات لا تدلُّ على معنى خاصٍ ومفهومٍ معين، أو تسرَّب الشكُّ والاختلاف إليها، أصبحت هذه الأمة فريسةً لكلِّ دعوةٍ وفلسفةٍ، وساغ لكل أحدٍ أن يقول ما يشاء، ويروِّج على كثيرٍ من العامة وأشباه العامة؛ بل الخاصة، وعمَّت الفوضى العقلية والدينية، وذلك ما يريدون، ومنه يدخلون[1].

قالوا: «إنَّ لظواهر القرآن والأحاديث بواطنٌ تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وإنَّها بصورتها توهِمُ الجهال صوراً جليَّةً، وهي عند العقلاء رموزٌ وإشارات إلى حقائق خفية؛ وإنَّ من تقاعد عقلُه عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار؛ وقنع بظواهرها، كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع، ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف، واستراح من أعبائه! قالوا: وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]»[2].

ولما تقرَّر أنَّ لكل لفظٍ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً ـ والباطن هو اللب ـ استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم، وأطلقوا العنان، وفسَّروا هذه الكلمات والحقائق بما شاؤوا وشاء لهم عبثهم وثقتهم بتقليد المستمعين وبساطتهم.

وهنا أمثلةٌ طريفةٌ لهذا التفسير التقطناها من كتاب (قواعد عقائد آل محمد)، لمحمد بن الحسن الديلمي اليماني، من علماء أوائل القرن الثامن الهجري، وهو ثقةٌ مأمونٌ في النقل:

«يقولون: للشرائع باطنٌ لا يعرفه إلا الإمام، ومن ينوب منابه، وكذلك كل ماورد في الحشر والنشر وغيرها، فكلها أمثلةٌ ورموزٌ إلى بواطن، فمعنى الغُسل: تجديد العهد عليه، ومعنى الجِماع: مكالمةُ مَنْ لا عهد له بالباطن... والزنا:

(١) وكذلك صنع بعض أصحاب الإشارات من المتصوِّفة. (الناشر)
(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص١٠٢.

إلقاء العلم في سمع مَنْ لم يعاهده. والاحتلام: سبقُ اللسان لمذهب الباطن. والطهورُ: التبرؤُ من كل مذهبٍ خالف الباطنية. والتيمم: الأخذُ للعلم من المأذون. والصلاة: الدعاء إلى الإمام. والزكاة: بثُّ العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها. والصوم: كتمان العلم عن أهل الظاهر، وكذلك كتمان المذهب. والحج: طلب العلم الذي تشدُّ رحائلُ العقل إليه. وقيل: الكعبة: النبيُّ، والبابُ: عليّ، والصفا: النبيّ، والمروة: عليّ، والميقات: عليّ. والتلبية: إجابةُ الداعي إلى باطنهم. والطواف بالبيت سبعاً: هو الطواف لمحمد إلى تمام الأئمة السبعة. وصلاة الفجر: دليلٌ على السابق، والظهر: على التالي، والعصر: على الأساس، وهو الوصي. والمغرب: على الناطق. والعشاء: على الإمام»[1].

وفي المعجزات قالوا: «الطوفان: هو العلم، غرق فيه أهل الشبه والظاهر، والسفينة: حرزه الذي تحصَّنَ به المستجيب. ونار إبراهيم: غضبُ نمروذ عليه. وذبح إسحاق: أخذ العهد عليه. وعصا موسى: حجته التي غلب بها عند المناظرة، وليست بخشبة. وانفلاق البحر: هو افتراق علم موسى على أقسام، والبحر: هو العالم. والغمام الذي أظلهم: إمامٌ نصبه موسى. والجراد والقمل والضفادع والدم: هي التزامات موسى واحتجاجاته. والمن والسلوى: علمٌ نزل من السماء بداعٍ من دعاتهم»[2].

ولعلَّ بعض القراء الكرام يشكّون في صحة هذه الأقوال، وكيف تصدر من عاقل؟! ويتطرق الشكُّ إلى ناقلها لكونه من أهل السنة: فهنا نُقولُ من كتاب (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) للدكتور زاهد علي، ظهر حديثاً في الهند، مع ذكر مصادرها وهي كتب أئمة الإسماعيلية ودعاتها:

«لا إله إلا الله تأويله: لا إمام إلا إمام الزمان[3]. الوضوء: مولانا علي، بحجة أن الحروف في كلتا الكلمتين ثلاثة[4]. الصلاة: الرسول ﷺ، بحجةِ أنَّ

(١) قواعد عقائد آل محمد، ص١٧. وقد ذكر مثلها الغزالي في المستظهري.
(٢) المصدر السابق، ص١٨.
(٣) تأويل الشريعة من كلام الإمام مولانا المعز، ص٤.
(٤) تأويل القاضي نعمان.

الحروف في كلتا الكلمتين أربعة[1]. **لا صلاة إلا بوضوء**: يعني لا يصحُّ الإيمان بالرسول بغير الإيمان بوصاية علي[2]. **ركعات الظهر الأربع**: محمد عليه الصلاة والسلام[3]. **ركعات العصر الأربع**: دعوة مولانا علي[4]، **عيد الفطر**: مولانا المهدي؛ لأنه ظهرت منه دعوة الحق[5].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾: مولانا حسن بن علي؛ لأن الله رقاه إلى درجة الإمامة، ثم أهبطه؛ فقد قطع من دريته الإمامة[6]، ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: مولانا الحسين، وحجته ابنه الذي خلفه»[7].

ولم يقتصر دعاة الباطنية على التمييز بين الظاهر والباطن، وتفضيل الباطن؛ بل تدرَّجوا في الاستخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخريةٍ واستهزاءٍ، يتقذَّره الإنسان ويتبرأ منه.

يقول الدكتور زاهد علي: «لقد كان الأئمة والدعاة يفهِمونَ تلاميذهم من الطبقة العليا أنَّ الظاهر متناقضٌ ومعوجٌّ، وأنَّه علم كيف، وأنه محض... لا دليل عليه، وأنه لا حياةَ فيه، وأنَّ أهل الظاهر هم أهل الكفر؛ بل أهل الشرك»[8].

ويقول في موضع آخر: «إنَّ لبَّ تعاليمنا الإسماعيلية ولبابها، أنَّ الغاية من الشريعة **التأويلُ** الذي هوَ من الجسد كالروح، وأنَّ التنزيلَ ليس إلا جسماً»[9].

وتقدَّموا خطوةً أخرى، فأعلنوا عقيدتهم: أنَّ الأئمة الذين هم أهل الأسرار والحقائق يعطِّلون ظاهرَ الشريعة وينسخونه، يقول سيدنا (إدريس): «بعث الله

(١) تأويل القاضي نعمان.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) تأويل مولانا المعز.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) تأويل الدعائم.
(٦) أيضاً: ذكر ليلة القدر.
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها، ص ت.
(٩) المصدر السابق، ص٢٢.

محمد بن إسماعيل ابن الإمام محمد باقر وهو نبيٌّ ناطقٌ، نسخ شريعة محمدٍ ﷺ»[1].

ثورة على النبوة المحمدية:

لقد كان إنكار المفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة، وتفسير الكلمات الشرعية والمصطلحات الدينية حسب الأغراض والأهواء، والفصل بين الظاهر والباطن باباً لم يزل يدخل منه الثائرون على النبوة المحمدية، والمؤامرات ضدَّ الإسلام.

لقد نصبوها ألغاماً ينسفون بها هذا البناء العظيم، الذي أقامه محمد ﷺ وخلفاؤه، والذي لا يزال يؤوي هذه الأمة العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها، ويؤسسون على أنقاضه هيكلاً دينياً جديداً. لقد كان ذلك كلُّه محاولةً لإنشاء دولةٍ مستقلةٍ في ضمن دولة الشريعة الإسلامية؛ وإنشاء مجتمعٍ مستقلٍّ في وسط المجتمع الإسلامي، ولا شكَّ أنَّ دولةً من الدول لا تسمح بنشوء هذه الدولة واستفحالها في وسطها.

وقد رأينا المنافقين والملحدين الذين ثاروا على هذه النبوة المحمدية في زمانهم أسرعوا إلى إنكار هذا التواتر المعنوي، والتوارث اللفظي، وحاولوا أن يجعلوا هذه الشريعة ومصطلحاتها ومفاهيمها بحيث يعبث بها العابثون؛ وبذلك مهَّدوا لأنفسهم قيام سيادةٍ دينيةٍ ونبوةٍ جديدةٍ، يتمتَّعون في ظلها بسلطانٍ روحيٍّ، وسيطرةٍ سياسيةٍ، وحريةٍ ماديةٍ. ومن أوضح أمثلتها: (البهائية) في إيران، و(القاديانية) في الهند[2]. وكلُّها تلتقي على إنكار التوارث المعنوي، وتأويل الكلمات الشرعية الإسلامية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة، والقياس، والمنطق، والاتجاه إلى إنكار الحقائق الغيبية، والخرق للسنن الطبيعية، وتلتقي أولاً وآخراً على إنكار عقيدة ختم النبوَّة[3].

(١) عاصمة نفوس المهتدين وقاصمة ظهور المعتدين لسيدنا.
(٢) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف (القادياني والقاديانية دراسة وتحليل).
(٣) ما أشبه اليوم بالبارحة، فها هي دعوات الإباحية والعلمانية والإلحاد تلبس ثوب =

وقد كانت الباطنية مؤسسةً على الفلسفة اللاهوتية اليونانية، وعلى الطبيعيات، وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم بسخاءٍ وحريةٍ، وطبَّقوا الفلسفة ولغتها وتفكيرها على ديانتهم الجديدة، ونظام عقائدهم وأفكارهم.

ولعلَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذه الفلسفة ـ وما جاء فيها من عقائد وأفكار ـ حقائقُ علمية ثابتة، لا تتزعزع ولا تقبل النقاش، وأنَّها تظلُّ كذلك؛ فأرادوا أن يُضْفُوا بذلك على عقائدهم الواهية شيئاً كثيراً من قدسية العلم وروعته، وأن يجذبوا إليها كثيراً من النشء الجديد الذي أعشاه ضوء الفلسفة، وخلعت قلبه مصطلحاتها المفخمة، وتشقيقاتها الدقيقة، وقد اعترف بذلك العالم الإسماعيلي الدكتور (زاهد علي) في كتابه (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) يقول: «لقد اعتقدنا أنَّ جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم، وفي علم الطبيعيات، وعلم الإلٰهيات صحيحةً، لا يتطرَّقُ إليها الشكُّ، فاستعنا بها في إثبات دعوتنا الإسماعيلية ونظامها وحدودها، وادعينا أنَّ المسائل التي قدمناها حقائق علمية»[1].

ويقول في موضعٍ آخر:

«لقد تناولنا معارف المعتزلة بشيءٍ من التغيير، وأفرغناها في قالبنا؛ ولذلك يقال: إنَّ أكثر معلوماتِ الإسماعيلية ملتقطةٌ من المعتزلة والفلاسفة»[2].

ويقول في موضعٍ آخر:

«لقد وضعنا العقل الأول أو العقل العاشر، أو إمام الزمان (كما نسميه نحن) بكلِّ ما يُوصفُ به المبدأ الأول والذات الإلٰهية، حتى إننا نعني بالعقل الأول أو إمام الزمان كلَّ ما جاء في وصف الله تعالى في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢] وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ

= الاجتهاد والتجديد والفهم العصري، وتدخل تحت عباءة التأويل لتنقض بنيان الإسلام، وما قراءات شحرور وغيره من هذا ببعيد، فهذا من هذا. (الناشر)

(١) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥.

ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]»[1].

ولا شكَّ أنَّ الباطنية تبنوا الفلسفة؛ فكان طبيعياً أن يكون أكثرُ اعتمادهم على المشتغلين بالفلسفة وأنصارها، وكان طبيعياً أن يتتبعوهم ويلاحقوهم، يظهر ذلك من كتابات دعاة الإسماعيلية القدماء أنفسهم، ورسائلهم ووصاياهم؛ فقد بعث عبد الله بن الحسن القيرواني، أحدُ دعاة الإسماعيلية رسالةً إلى أبي الحسن ابن سعيد الجنابي زعيم القرامطة، يقول فيها: «ادعُ الناسَ بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه! وأوهم كلَّ واحدٍ منهم بأنك منهم! فمن آنستَ منهم رشداً، فاكشف له الغطاء! وإذا ظفرتَ بالفلسفي فاحتفظ به! فعلى الفلاسفة معوَّلُنا»[2].

وقد لاحظ ذلك المستشرق (دوزي) فقال عن مؤسس الدعوة الإسماعيلية، وهو (عبد الله بن ميمون القداح):

«ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخُلَّص؛ ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن يعتمدُ إلا على الطائفة الأخيرة، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسرِّه، وخفيِّ عقيدته، وهو: أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخريةً، وأن باقي البشر ـ أو الحُمُر كما يسميهم ـ ليسوا أهلاً لفهم هذه المبادئ؛ غير أنه، تحقيقاً لغايته، لم يعفّ عن مؤازرتهم؛ بل كان يلتمسها، ويحذِّرُ في نفس الوقت من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائعة إلا في المرتبة الأولى لدعوته»[3].

وقد ساعد الباطنيةَ انتشارُ الفلسفة والاضطرابُ الفكري الذي كان يسود المجتمع الإسلامي بصراع الفلسفة وعلم الكلام، الذي أدَّى إلى التقعر وتشقيق الشعرة، وقد ألفته الأذهان، وأولع به الشبان، ووجد في المتعلمين وأنصاف المتعلمين ولعٌ بالعلوم الغامضة، وبما يشبهُ العلوم الغامضة، والحقائق البعيدة الغور. فنفقت سوق الباطنية، وهبَّت ريحهم، ونصت تجارتهم، واجتمع حولهم أناسٌ بدوافع مختلفة، وأغراضٍ شتّى.

(١) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها، ص٢٦.

(٢) الفرق بين الفرق، ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) إخوان الصفا، تأليف الأستاذ عمر الدسوقي، ص٢٥.

منهم من دفعه إليهم أخذ الثأر من الذين كانوا سبباً في ذهاب دولتهم وملكهم[1].

ومنهم من دفعه بغضُ الدولة العباسية القائمة، وما يعانونه من ظلمٍ وحيفٍ في ظلها، والباطنية هم الذين يعملون ضدها وينتصبون لها.

ومنهم من دفعته الرغبة في الأسرار والغوامض.

ومنهم من دفعه إليهم ردُّ فعلٍ ضدَّ الظاهرية السائدة، والتمسك بالقشور، والإلحاح عليها إلحاحاً زائداً، وإنكار كل ما زاد عليها.

وكثيرٌ منهم اندفع وراء إشباع الرغبات، والتهام اللذات، التي يمكّن منها الباطنية، ولا يمكّن منها غيرهم.

ومنهم من دفعه الغضبُ لأهل البيت والتشيُّعُ لهم، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسمهم، وتدعو إليهم.

ومهما اختلفت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيعاً وأنصاراً، وأصبحت مؤسسةً سريةً يرهب جانبها، وتخشى غائلتها، حتى أصبحت في زمنٍ قريبٍ قوةً تحسب لها الحكومات الإسلامية الكبيرة الحساب الكبير، وظلّت منها مدة طويلة في تعبٍ عظيمٍ، وعناءٍ كبيرٍ، وأضحى كثيرٌ من رجالاتها ووزراء الحكومات صرعى الإرهاب، واغتيل نفوسٌ كان غناؤها للإسلام عظيماً، كنظام المُلك الطوسي، وفخر الملك؛ حتى أتى على المسلمين حينٌ من الدهر، ولا يعرف العالم منهم أو الوزير أو القائد، إذا نام في الليل، هل يصبح سالماً، أم يكون فريسةَ أحد الإرهابيين؟!.

قال ابن الجوزي: «واستفحل أمرُهم بإصبهان، وآل الأمر إلى أنّهم كانوا يسرقون الإنسان، ويقتلونه، ويلقونه في البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقتُ العصر ولم يعد إلى منزله، أيسوا منه»[2].

---

(١) من الشعوبيين. (الناشر)

(٢) تلبيس إبليس، ص١١٠.

هذا عدا ما دسُّوا في العلم والأدب، وعدا ما تأثرت بهم العقول والنفوس؛ حتى تجاسر الناس على تأويل النصوص والقطعيات، وتحريف الأصول والمُحكمات، ووجد في الناس إقبالٌ غريبٌ على الإلحاد والتطرف في الاعتقاد.

إخوان الصفا:

وقد قامت في العراق في القرن الرابع الهجري ـ وهو قرنٌ قد بلغ فيه الاضطراب الفكري والاضطراب السياسي أوجهما ـ جماعةٌ سريّةٌ كالماسونية، تجمع مزيجاً من الفلسفة اليونانية، والعقيدة الباطنية، تسمَّى (إخوان الصفا) وكان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة، والفيثاغورية الحديثة، وكانوا يريدون أن يضعوا للناس مذهباً جديداً، يجمعُ بين إلهيات اليونان، ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم، وبين العبادات الشرعية الإسلامية، والطهارة والمروءة، والأخلاق الثابتة في كل دينٍ وأمةٍ، وعقيدة الشيعة الإسماعيلية، ويخرجوا على الناس بخليطٍ فيه حكمةُ اليونان وتنظيمُ الأديان.

يصفهم أبو حيان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فيقول:

«وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعِشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة؛ فوضعوا بينهم مذهباً، زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله؛ وذلك أنهم قالوا: إنَّ الشريعة قد دُنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيلَ إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنَّها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنَّه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصلَ الكمالُ.

وصنَّفوا خمسين[1] رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفا)، وكتموا فيها أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ووهبوها للناس، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية، والأمثال الشرعية والحروف المحتملة، والطرق الموهمة».

---

(١) الصحيح أنها إحدى وخمسون رسالة.

وهذه الرسائل تشتملُ على الطبيعيات، والرياضيات، والإلٰهيات، والعقليات، ويعوزها التعمق والنظام، ويظهرُ فيها الإغراق في الخيال، والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحصٍ وانتقادٍ، وبحثٍ في كل علمٍ من غير إشباعٍ وإقناعٍ.

وقد لاحظ ذلك أبو حيان فقال: «مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفايةٍ، ينكرون فيها البعث بالأجساد[1]، ويفسِّرون الآخرة والجنة والنار خلافاً لما تواتر عند المسلمين، وفُهِمَ من النصوص الدينية القطعية[2]، وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين، ويقولون: هي النفوس الشريرة الهائمة فيما دون فلك القمر، مع إخوانها من النفوس التي جهلت ذواتها في الدنيا»[3].

ويفسِّرون الكفر[4] والعذاب[5] تفسيراً باطنياً فلسفياً.

وتشتمل على كثيرٍ من الآراء الخيالية، بعضها متلقَّفٌ من اليونان، وبعضها وليد الأذهان، وبعضها تراث الكهَّان، كأسرار الأعداد[6] والتنجيم، والفال، والزجر[7]، والسحر، والعزائم[8]، والإيمان بطوالع النجوم، وتأثيرها[9] وموسيقى الأفلاك ونغماتها وألحانها[10]. وتشتمل كذلك على عقيدة الوحي[11]، والإمام المستور[12]، والتقية[13].

---

(١) رسائل إخوان الصفا: ٤/ ٦١ ـ ٦٢.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٧٨، ٤/ ٤٠.
(٣) المصدر السابق: ٤/ ٢٦.
(٤) المصدر السابق: ٣/ ٧٦.
(٥) المصدر السابق: ٣/ ٧٦.
(٦) المصدر السابق: ١/ ٢٧ ـ ٢٨.
(٧) المصدر السابق: ١/ ١٠٦.
(٨) المصدر السابق: ٤/ ٣٢٠.
(٩) المصدر السابق: ١/ ٩٥.
(١٠) المصدر السابق: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.
(١١) المصدر السابق: ٤/ ٤٠٤.
(١٢) المصدر السابق: ٣/ ٨٦، ٤/ ٥٧.
(١٣) المصدر السابق: ٤/ ٣٠٨.

وفيها إعداد النفوس والعقول لدولةٍ جديدةٍ، تقوم على إمامة أهل البيت، وإخطار بانتهاء أمد الدولة العباسية وزوالها، وقد جاء فيها ما يلي: «وقد ترون أيها الإخوان ـ أيدكم الله وإيانا بروحٍ منه ـ أنَّه قد تناهت قوة أهل الشر، وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنقصان، واعلم أنَّ المُلك والدولة ينتقلان في كل دهرٍ وزمانٍ، ودورٍ وقرانٍ، من أمةٍ إلى أمةٍ، ومن أهل بيتٍ إلى أهل بيتٍ، ومن أهل بلدٍ إلى أهل بلدٍ»[1].

وبالاختصار، إنَّ (رسائل إخوان الصفا) مجموعةٌ غريبةٌ من الحكمة، والديانة، والشعوذة، والكهانة، والسياسة، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلٰهية، ونظرياتها وأوهامها، وتنهار بانهيارها، وليست لها أهميةٌ كبيرةٌ.

ولولا الاضطراب الفكري الذي كان يسود في القرن الرابع والخامس، وإجلال كل ما يظهر في الصبغة الفلسفية، لما نالت هذا الاهتمام، ولما استحقت أن يتناقلها المعتزلة ومن جرى مجراهم، يتدارسونها، ويحملونها معهم سيراً إلى بلاد الإسلام[2].

وكانت هذه الرسائل محاولةً لوضع نظامٍ جديدٍ: خلقي، إلٰهي، علمي، يحلُّ محلَّ الشريعة الإسلامية التي كان يعتقد (إخوان الصفا) أنها ـ بشكلها الحاضر ـ قد أصبحت عتيقةً، لا تؤدي رسالتها.

وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً؛ فلم تنتج نظاماً علمياً، ولم تنشئ مجتمعاً يقوم على أساسها، وأصبحت في مدَّةٍ قريبةٍ من الآثار التاريخية العتيقة التي لا تأثير لها في الحياة، ولا محلَّ لها إلا في المتاحف والمكتبات.

ويبدو لي كلَّما قرأتُ تاريخ الباطنية و(إخوان الصفا) وتاريخ (البهائية) و(القاديانية)، أن أصحابها قرؤوا تاريخ الإسلام، وتاريخ الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية؛ فرأوا رجلاً يقوم في جزيرة العرب وحيداً فقيراً أعزل، ويدعو

---

(١) رسائل إخوان الصفا: ٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) تاريخ فلاسفة الإسلام لمحمد لطفي جمعة، ص٢٥٤.

إلى عقيدةٍ وشريعةٍ، فلا يلبث أن يكوّن أمةً، ويكوّن دولةً، ويكوّن حضارةً، ويرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً؛ فغرّت هؤلاء نفوسهم الطامحة، وأغرتهم بأن يجربوا هذه التجربة، وعندهم الذكاء والدهاء، وقوة التنظيم والعلوم والأتباع، عسى أن يكونوا أمةً ودولةً وحضارةً، ولماذا لا تثمر الجهود؟ ولماذا لا تتكرر المعجزة، والفطرة البشرية لا تزال هي الفطرة، ولا يزال الناس أشباهاً؟!

لقد رأى هؤلاء الطامحون هذا الرجل الوحيد الفقير الأعزل، ولم يروا ما يعتزُّ به من رسالةٍ ونبوّةٍ وشخصيةٍ وسيرةٍ، ولم يروا تلك الإرادة الإلٰهية الغلاّبة التي قضت بانتصاره، وظهوره، وخلوده: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد أثمرت جهودهم مؤقتاً، فكان لهم أتباعٌ وأشياعٌ، وقد استطاع بعضهم ـ كالباطنية ـ أن يقيم دولةً، وقد ازدهرت هذه الدولة، وبقيت ـ ما بقيت ـ تنظيماتهم وحيلهم واستدراجاتهم، وما لبثت أن تبخّرت وتلاشت، وبقيت دياناتهم في نطاقٍ ضيقٍ، لا تقدّم ولا تؤخّر في العالم.

أما الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، فلا يزال القوة الروحية الكبرى، ولا يزال صاحبَ أمةٍ ودولٍ وحضارةٍ، وأما شمس النبوّة المحمدية فلا تزال مشرقةً لم تنكسف ولم تحتجب يوماً واحداً.

الحاجة إلى شخصية قوية جديدة:

وعلى كلٍّ فقد كان العالم الإسلامي في القرن الخامس وقد تواضعت على إضعافه الفلسفة والباطنية، وأحدثتا تبلبلاً فكرياً؛ يجرُّه إلى الإلحاد في العقيدة، والتدهور في الأخلاق، والاضطراب في السياسة ـ في حاجةٍ ملحّةٍ إلى شخصيةٍ قويةٍ جديدةٍ، تردُّ إليه الإيمان بالعقيدة، والاعتماد على مصادر الدين الأصلية، والاستقامة في الأخلاق، وينتجُ الإنتاج الجديد الذي تكسدُ معه سوق الباطنية، وتركد ريحها، وتعرض الإسلامَ عرضاً عقلياً جميلاً، تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية، وكان لا بدَّ لهذه الشخصية أن تكون جامعةً بين العلوم العقلية والنقلية، لها في كلٍّ منها قدمٌ راسخةٌ، وباعٌ طويلٌ، ونظرٌ نافذٌ، وتكون عقليةً كبيرةً، تناهض فلاسفة اليونان وقادة الفكر في العالم، تجري معهم في رهانٍ واحدٍ، وتستطيع أن

تدوّن كثيراً من العلوم تدويناً جديداً، وتقول فيهما كلمتها، وتجمع إلى ذلك كله من المواهب العلمية والكفاية العقلية والإيمان القوي الراسخ الذي اكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأملاته، وإخلاصه وجهاده في سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين، ويستطيعُ بكل ذلك أن ينفخ في المجتمع الإسلامي روحاً جديدةً وحياةً جديدة.

لقد رُزق العالم الإسلامي ـ وهو في أشدِّ حاجةٍ وأدقِّ ساعةٍ ـ هذه الشخصية الفذة، في منتصف القرن الخامس الهجري: هي شخصية **(الغزالي)** التي ستكون موضوع عدَّة فصولٍ مقبلة.

* * *

حجة الإسلام الغزالي

* حياته ودراسته
* ناقد للفلسفة ومتكلم
* مصلح اجتماعي

المحاضرة الثامنة

حجة الإسلام الغزالي

حياته ودراسته

نشاته ودراساته:

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، أبو حامد الغزالي.

ولد في (طابران)؛ من ناحية (طوس)[1] سنة ٤٥٠هـ، وكان أبوه فقيراً، صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غَزْلِ الصوف، ويطوف على المتفقّهة، ويجالسهم، ويتوفَّر على خدمتهم، ويجدُّ في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرَّع، وسأل الله أن يرزقه ابناً، ويجعله فقيهاً. ويحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقتُه بكى، وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً؛ فاستجاب الله دعوته[2].

ولما حضرت أباه الوفاةُ، وصَّى به وبأخيه (أحمد) إلى صديقٍ له متصوِّف من أهل الخير، فلمّا مات أقبل الصوفي على تعليمهما: إلى أن فني ذلك النزر اليسير الذي كان خلَّفه لهما أبوهما، وتعذَّر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقتُ عليكما ما كان لكما، وأنا رجلٌ من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلحُ ما أرى لكما أن تلجأا إلى مدرسةٍ؛ فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوتٌ يعينكما على وقتكما. ففعلا ذلك[3].

قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه ببلده على (أحمد بن محمد الراذكاني) ثم سافر إلى جرجان إلى (الإمام أبي نصر الإسماعيلي)، وعلَّق عنه (التعليقة).

---

(١) مقاطعة في خراسان شمالي شرقيّ إيران، وتسمى الآن (مشهد).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٤/ ١٠٢.

(٣) المصدر السابق: ٤/ ١٠٢.

ثم رجع إلى طوس، قال: «قُطعتْ علينا الطريقُ، وأخذ العيّارون جميع ما معي ومضَوْا فتبعتهم، فالتفتَ إليَّ مقدَّمهم وقال: ارجع! ويحك! وإلا هلكتَ.

فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردَّ عليَّ (تعليقتي) فقط، فما هي بشيءٍ تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتك؟

فقلت: كتبٌ في تلك المخلاة، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها.

فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عرفتَ علمها، وقد أخذناها منك؛ فتجرَّدتَ من معرفتها وبقيتَ بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاة.

قال الغزالي: هذا مستنطِقٌ أنطقه الله ليرشد به أمري، فلما وافيتُ طوس أقبلتُ على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظتُ جميع ما علقته، وصِرتُ بحيث لو قُطع علي الطريق لم أتجرّد من علمي»[1].

وقدم الغزالي (نيسابور)، وهي عاصمة السلجوقيين، ومدينة العلم بعد بغداد، ولازم (إمام الحرمين) وهو من عرفنا شخصيته وجلالته في العلم والتدريس، وجدّ واجتهد، حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصول. وكانت العلوم السائدة في عصره.

وأعجب بذكائه وغوصه على المعاني الدقيقة واتساع معلوماته إمامُ الحرمين؛ فكان يقول: «الغزاليُّ بحرٌ مغدِقٌ[2]» وفاق أقرانه وهم أربعمئة؛ حتى أصبح معيداً لأستاذه، ونائباً عنه.

ولما مات إمام الحرمين (٤٧٨هـ) خرج الغزالي إلى العسكر قاصداً الوزير نظام المُلك، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سنه، وقد ظهر فضلُه، وذاع صيتُه، وكان مجلس الوزير مجمعَ أهل العلم وملاذهم ـ وكانت المجالس حتى المآتم لا تخلو من المناظرات الفقهية، والمطارحات الكلامية ـ فناظر الغزاليُّ

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٤/ ١٠٢.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ١٠٣.

الأئمة العلماء في مجلس نظام المُلك، وقهرَ الخصوم، وظهر كلامُه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلَّقاه الصاحبُ بالتعظيم والتبجيل، وولاَّه تدريس مدرسته (النظامية) ببغداد، وكان ذلك غاية ما يطمح إليه العلماء في ذلك العصر، ويتنافسون فيه.

فقدم بغداد في سنة أربعٍ وثمانين وأربعمئة، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره، وقلَّما تقلَّد هذا المنصب الرفيع عالمٌ وهو في هذه السن.

درَّس الغزالي بالنظامية، وأعجب الخلقَ حسنُ كلامه، وكمالُ فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبُّوه[1].

قال معاصره (عبد الغافر الفارسي): وعلت حشمته ودرجتُه في بغداد؛ حتى كانت تغلب حشمةَ الأكابر والأمراء ودار الخلافة[2]. وكان عليه جمٌّ غفيرٌ من الطلبة المحصِّلين.

يقول في (المنقذ من الضلال) في وصف حاله بالنظامية: «وأنا مَمْنُوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفس من الطلبة ببغداد»[3].

وأرسله الخليفة العباسي المقتدي بالله عام (٤٨٥هـ) إلى زوجة ملك شاه السلجوقي (تركان خاتون) التي كانت مالكةً لزمام المملكة. وكان الخليفة المستظهر معجباً به، خاضعاً لفضله، وباقتراحه ألف الغزالي كتابه في الردّ على الباطنية وسمَّاه (المستظهري).

اعتزال الغزالي التدريس وخروجه في طلب السعادة واليقين:

لقد بلغت شهرةُ الغزالي ومكانته العلمية في العالم الإسلامي أوجها، ووصل الرجل إلى أقصى ما يصلُ إليه عالمٌ في ذلك العصر من المجد والسمو والرئاسة، وأقبل إليه الطلبة من الآفاق، وخضع له العلماء والأمراء والوزراء،

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٤/ ١٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٧.
(٣) المنقذ من الضلال، مطبعة الترقي، ص٨٥.

وبقي في عاصمة العالم الإسلامي يدرِّس ويفيد ويؤلف. وكان في ذلك ما يرضي عالماً يحرصُ على الإفادة ونشر العلم، وطَموحاً يريد الرئاسة والمجد.

وكـان المنتظر أن يبقى الغزالي ـ وقد انتهت إليه رئاسة العلم في العالم الإسلامي ـ في مركزه العلمي، الذي ليس فوقه مركز، ويقضي حياته بين حلقات الطلبـة التي تحيط به، وجموع المسـتمعين والقاصدين التي تحدِّق بـه، وبين إعجاب الناس وثنائهم قرير العين، رخيَّ البال، مرفوع الرأس، عظيم الجاه، كما فعل كثيرٌ من أساتذته وأكثر أقرانه وزملائه. ولكن الغزالي لم يفعل ذلك، ولم تسمحْ له نفسه القلقة وهمته القعساءُ بأن يستمر في ذلك.

وفي هذا القلق وفي هذا التمرُّد على ما تهيأ له من جاهٍ ومجدٍ، سِرُّ عبقريته، وسِرُّ خلوده من بين الأقران والأعيان، ولذلك سُمِّيَ (حجة الإسلام) وقد استطاع بقوة إرادته، وصدق طلبه، وعلوِّ همته، أن يضحي بأكبر منصبٍ وأعظم جاهٍ يطمح إليه العلماء والأذكياء في عصره، ثم لا يناله إلا الواحد بعد الواحد في مدَّةٍ طويلةٍ، وسهل عليه أن يتخلَّى عنه ويعتزله، وينفض يده من كل ما يملكه من مالٍ وأثاثٍ ورياشٍ، وينتقل من دولة العلم التي كان يحكم فيها وحدَه ويسود، إلى الصحارى والخلوات التي كان يعيش فيها عيش الفقراء والغرباء.

إنَّه مثالٌ رائعٌ في تاريخ العلم والعقيدة، تندُرُ نظائره في كل زمانٍ ومكان.

وقـد حكى لنا الغزاليُّ نفسـه قصـةَ هذا التحوّل العظيم، وذكر أسـبابه ودوافعه، والصراع النفسي الذي ظلَّ يعالجه مدَّةً طويلةً: حتى تغلبت عليه الإرادة الصادقةُ، وخرج من بغداد في طلب السعادة واليقين؛ حتى ظفر بطلبته، ورجع سعيداً مؤمناً، يستطيع أن يقنع غيره ويملأه إيماناً ويقيناً، وكل ذلك في أسلوبٍ طبيعيٍّ جميلٍ أخّاذٍ، وبيانٍ سهلٍ سلسالٍ، يحلّه في المكانة الأولى مما كُتب بالعربية من (اعترافات) و(مذكرات) وفي المكانة السامية من الأدب العربي الذي يتدفَّقُ بالحياة، وإلى القرَّاء بعض قطعها بالاختصار والاقتضاب.

بحثٌ عن العلم اليقيني:

«قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول عمري،

غريزةً وفطرةً من الله وضعتا في جبلّتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة علي قربِ عهد سن الصبا؛ إذ رأيتُ صبيان النصارى لايكون لهم نشوءٌ إلا على التنصُّر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوُّد، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المرويَّ عن رسول الله ﷺ حيث قال: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» فتحرَّك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذِيْنَ، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحقِّ منها عن الباطل اختلافاتٌ، فقلتُ في نفسي أولاً: إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الأمور؛ فلا بدَّ من طلب حقيقة العلم، ما هي؟ فظهر لي أنَّ العلم اليقيني هو الذي ينكشفُ فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريبٌ، ولا يقارنه إمكانُ الغلط والوهم، ولا يتَّسع القلب لتقدير ذلك؛ بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدَّى بإظهار بطلانه مثلاً مَنْ يقلِبُ الحجرَ ذهباً، والعصا ثعباناً، لم يورِثْ ذلك شكّاً وإنكاراً.

فإني إذا علمتُ أنَّ العشرةَ أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائلٌ: لا؛ بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلبُ هذه العصا ثعباناً. وقلبها، وشاهدتُ ذلك منه، لم أشك ـ بسببه ـ في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه؛ فأما الشك فيما علمته، فلا.!

ثم علمتُ أنَّ كلَّ ما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقَّنه هذا النوع من اليقين، فهو علمٌ لا ثقةَ به، ولا أمان معه، فليس بعلمٍ يقيني»[1].

ويذكر الغزاليُّ بعد ذلك، كيف فتَّش عن علومه، فوجد نفسه عاطلةً من علمٍ يقيني موصوفٍ بهذه الصفة إلا في الحسِّيات والضروريات، ثم تأمل في المحسوسات والضروريات، وشكك نفسه فيها؛ حتى بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، وجعل يشكُّ فيها.

يقول: «فأعضلَ هذا الداء، ودامَ قريباً من شهرين، أنا فيهما على مذهب

(١) المنقذ من الضلال، ص٦٩ ـ ٧١.

السفسطة بحكم الحال، لا بحكم المنطق والمقال؛ حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفسُ إلى الصحة والاعتدال؛ ورجعت الضروريات العقلية مقبولةً، موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن بنظم دليل وترتيب كلام؛ بل بنورٍ قذفه الله تعالى في الصدر[1]».

اختبارٌ لعلم الكلام:

وبعد الشفاء من مرضِ السفسطةِ والشك في المحسوسات والضروريات، نظر الغزاليُّ في أصناف الطالبين حوله، فوجدها تنحصرُ في أربع فرقٍ، هم:

١ ـ المتكلّمون ٢ ـ الباطنية ٣ ـ الفلاسفة ٤ ـ الصوفية.

وبدأ يسبر غورها، وينشد الحق والشفاء من مرضه عندها، وابتدأ بعلم الكلام فحصَّله وعقلَهُ، وطالع كتب المحققين منهم، وأحكم هذا العلم حتى صنَّف فيه.

قال: «فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي، إنَّما مقصوده حفظُ عقيدة أهل السنَّة على أهل السنة. وحراستها من تشويش أهل البدعة.

واعتماد المتكلمين على مقدماتٍ تسلَّموها من خصومهم، وكان أكثرُ خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم».

يقول: «وهذا قليلُ النفع في حق من لا يسلّم سوى الضروريات شيئاً أصلاً؛ فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً»[2].

دراسة الفلسفة ورأي الغزالي فيها:

ثم أقبل على الفلسفة اليونانية، التي تزعمُ أنَّها الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة الحقّ والسعادة واليقين، وهي العلم المبنيُّ على العقل والمنطق والاستدلال، ورأى الغزاليُّ بعلوّ همته وما فُطِرَ عليه من الجد والصرامة، أنه

(١) المنقذ من الضلال، ص٧٥ ـ ٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص٨٢.

لا يسوغ له الحكم عليها، وبت الرأي فيها، حتى يكتنهها، ويحيط بمقاصدها وكلياتها؛ حتى يساوي أعلم الناس في هذا الموضوع، وأن لا يعتمدَ في ذلك على ما قال عنها خصومُها والهاجمون عليها، بل على ما دوَّنه الثقات منهم، والمدافعون عنهم.

فأقبل يدرسُ الفلسفةَ في جدٍّ وإخلاصٍ، ونهمٍ وشغفٍ؛ حتى وصل إلى أقصى ما يصل إليه عالمٌ يتوفر على دراسة الفلسفة ويتعمَّقُ فيها.

وكان أول عالمٍ دينيٍّ فعل ذلك في عصره، ونسمعه الآن وهو يتحدَّث عن دراسته للفلسفة: «ثم إني ابتدأت، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم الفلسفة، وعلمتُ يقيناً، أنَّه لا يقف على فساد نوعٍ من العلوم مَنْ لا يقفُ على منتهى ذلك العلم؛ حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته؛ فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحبُ العلم من غورٍ وغائلةٍ، وإذ ذاك، يمكن أن يكون ما يدَّعيه من فساده حقاً، ولم أرَ أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك».

«ولم يكن في كتب (المتكلمين) من كلامهم ـ حيث اشتغلوا بالرد عليهم ـ إلا كلماتٌ معقَّدةٌ مبدَّدةٌ ظاهرةُ التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها عاقل عامي، فضلاً عمن يدَّعي دقائق العلوم، فعلمتُ أنَّ ردَّ المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ردٌّ في عماية، فشمَّرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة، من غير استعانةٍ بأستاذ، وأقبلتُ على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفس من الطلبة ببغداد؛ فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين، ثم لم أزل أواظبُ على التفكُّر فيه، بعد فهمه، قريباً من سنة، أعاوِدُه وأردده، وأتفقد غوائله وأغواره»[1].

وبعد هذه الدراسة الشاملة العميقة التي أخلص فيها كل الإخلاص، وجدَّ

(١) المنقذ من الضلال، ص٨٤ ـ ٨٥.

فيها كل الجدّ، يئس الغزالي من الفلسفة أيضاً، ولكنّه لم يستعجل، ولم يسرع في إبداء رأيه، شأن كثيرٍ من علماء الدين في عصره، وفي غير عصره، ولم يظلم الفلسفةَ، ولم يشملها باللعن والتكفير، شأن كثيرٍ من الفقهاء ورجال الفتوى؛ بل تناولها بالتحليل والتقسيم، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم، وذكر ما لهم وما عليهم، وما يمسُّ الدين من آرائهم وبحوثهم ويتصل به، وما لا يمسُّه ولا يتصل به، وما يستحقون به التكفير. وما ليس من الدين في قليلٍ ولا كثيرٍ.

وهو أول عالمٍ دينيٍّ يقوم بهذا التحليل العلمي، ويتثبَّت هذا التثبت، ويعرف تاريخ الفلسفة، ويعرف طبقات رجالها ومدوّنيها.

وأول عالمٍ دينيٍّ ينصف علومهم التجريبية النافعة، ويعترف بصحَّة بعضها وإفادة هذه العلوم.

يقسِّم علومهم إلى ستة أقسامٍ: (١) رياضية (٢) منطقية (٣) طبيعية (٤) إلٰهية (٥) سياسية (٦) وخلقية.

ويقول عن الرياضية: «وأما الرياضية، فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق شيءٌ منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً؛ بل هي أمورٌ برهانية، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها[1]».

وهذا رأيٌ متوازنٌ يدلُّ على سلامة التفكير وسعة الأفق، ويزيدُ في قيمة كلِّ ما يقول هذا الرجل في نقد الفلسفة.

ولكنَّ الغزالي لا يقتصر على الاعتراف بصحة العلوم الرياضية؛ بل يذكر ما تولّد منها من الآفات ـ من غير قصدٍ ـ يُرى تأثيرُها في المجتمع الإسلامي المعاصر.

يقول ـ وهو يذكر الآفة الأولى ـ: «الأولى: من ينظر فيها يتعجَّبُ من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن ـ بسبب ذلك ـ اعتقاده في الفلاسفة؛ فيحسب أنَّ جميع علومهم في الوضوح، وفي وثاقة البرهان كهذا العلم، ثم يكون

(١) المنقذ من الضلال، ص٩٠.

قد سمع كفرهم وتعطيلهم، وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة؛ فيكفر بالتقليد المحض». ويقول: «لو كان الدين حقاً، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم؛ فإذا عرف بالتسامع كفرَهم وجحدَهم؛ فيستدلُّ على أنَّ الحقَّ هو الجحدُ والإنكارُ للدين»[1].

وكأنه يصور ـ وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية وردّ فعلها في كثيرٍ من ضعاف العقول والمتكايسين في عصره ـ عقليةَ النشءِ الجديد، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين، الذين خضعوا لبراعة الأوروبيين في العلوم الطبيعية والاختراعات، ورأوا ما هم عليه من إلحادٍ وزندقةٍ وتفسُّخٍ خلقيٍّ؛ فظنُّوا أنه الطريق الأقوم، وقلَّدوهم فيه.

اسمعوه يقول ـ وكأنه في هذا العصر، ويتحدث عن هذا الطراز ـ: «وكم رأيتُ من يضل عن الحق بهذا القدر، ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعةٍ واحدةٍ ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو؛ بل لكل صناعةٍ أهلٌ بلغوا فيها رتبةَ البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها.

فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني، وفي الإلٰهيات تخميني، لا يعرفُ ذلك إلا من جرَّبه وخاض فيه؛ فهذا ـ إذا قرر على هذا الذي اتخذ بالتقليد ـ لم يقع منه موقع القبول؛ بل تحمله غلبة الهوى، وشهوة البطالة، وحبُّ التكايس، على أن يصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها»[2].

وبعدما ذكر الرياضيات تكلَّم عن المنطقيات فيقول:

«لا يتعلق شيءٌ منها بالدين نفياً وإثباتاً؛ بل هو النظر في طرق الأداة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح، وكيفية ترتيبه، وأن العلم إمَّا تصور، وسبيل معرفته الحدُّ، وإما تصديقٌ، وسبيل معرفته البرهانُ، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر؛ بل هو جنسُ ما ذكره المتكلِّمون

(١) المنقذ من الضلال، ص٩٠ ـ ٩١.
(٢) المصدر السابق، ص٩١.

وأهل النظر في الأدلة، وإنَّما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات»[1].

وهكذا يقول عن علم الطبيعيات، فبعدما يشرحه يقول:

«وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب؛ فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم إلا في مسائل معينة، ذكرناها في كتاب (تهافت الفلاسفة)»[2].

ويقول:

«أما السياسات، فجميعُ كلامهم فيها يرجع إلى الحِكَمِ المصلحية المتعلّقة بالأمور الدنيوية، والإيالة السلطانية، وإنَّما أخذوها من كتبِ الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء»[3].

ويقول: «أمَّا الخليقة، فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية... ولقد كان في عصرهم؛ بل كان في كلِّ عصرٍ جماعةٌ من المتألهين»[4].

وبعد ما ذكر هذه العلوم التي لا تتصادم مع الدين الإسلامي إلا في النادر ذكر الغزالي العلم الذي تركَّزَ فيه الصراع بين الإسلام والفلسفة، وهو علم الإلٰهيات، يقول:

«وأما الإلٰهيات ففيها أكثرُ أغاليطهم؛ فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها»[5].

وبعد ما نظر الغزالي في جميع هذه العلوم نظرةً عميقةً واسعةً، ودرسها دراسةَ متخصِّصٍ متوسِّعٍ ـ يئس من أن ينال بغيته في هذه العلوم. يقول:

(١) المصدر السابق، ص٩٣ ـ ٩٤.
(٢) المنقذ من الضلال، ص٩٥.
(٣) المصدر السابق، ص٩٩.
(٤) المصدر السابق، ص١٠٠.
(٥) المصدر السابق، ص٩٨.

«ثم إنّي لما عرفت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه، وتزييف ما يزيف منه، علمتُ أنَّ ذلك أيضاً غيرَ وافٍ بكمال الغرض، وأنَّ العقل ليس مستقلاً بالإحاطةِ بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات»[1].

اختبار للباطنية وياس الغزالي منها:

وهنا أقبل إلى الباطنية التي عَظُمَ شأنها في عصره، واستهووا كثيراً من الشبان ومن طلبة العلم، فأقبل إليهم الغزالي؛ لأنَّه ضعفتْ ثقتُه بالعقل والدليل، وكان الباطنية يزعمون أنهم يأخذون علمهم من الإمام المعصوم القائم بالحق، وهو مصدر العلم الذي يصحُّ الاعتماد عليه والثقة به؛ فكان طبيعياً أن يلجأ إليهم الغزالي ويجرّبهم ـ وقد يئس من الفلسفة ـ وقد قام بهذه التجربة، ودرس عقائد الباطنية وعلومهم دراسته للفلسفة وفروعها، وانتهى إلى نفس النتيجة.

ندعه يتحدَّث عن تجربته الجديدة[2]:

«وكان قد نبغت نابغة تعليمية، وشاع بين الخلق تحدُّثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عنَّ لي أن أبحث عن مقالاتهم، لأطَّلعَ على ما في كتبهم، ثم اتفق أن ورد عليَّ أمرٌ جازمٌ من حضرةِ الخلافة بتصنيف كتابٍ يكشفُ عن حقيقة مذهبهم، فلم يسعني مدافعته، وصار ذلك مستحثاً من خارج ضميمة للباعث الأصلي من الباطن، فابتدأتُ بطلب كتبهم، وجمع مقالاتهم، وكان قد بلغني بعضُ كلماتهم المستحدثة، التي ولدتها خواطرُ أهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم، فجمعتُ تلك الكلمات، ورتبتُها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق، واستوفيتُ الجواب عنها»[3]. «والمقصودُ أني قررتُ شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرتُ فسادها بغاية البرهان»[4].

وقد اقتنع أخيراً بأنَّه «لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم، ولولا

(١) المنقذ من الضلال، ص١٠٨ ـ ١٠٩.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٩.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق، ص١١١.

سوءُ نصرةِ الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعةُ ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة»[1].

«إنَّ هؤلاء ليس معهم شيءٌ من الشفاء المنجي من ظلماتِ الآراء، بل مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام طالما جاريناهم، فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم؛ وإلى المعلّم المعصوم، وأنَّه الذي عينوه، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلّموه من هذا المعصوم، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها، فضلاً عن القيام بحلّها، فلمَّا عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: إنَّه لا بدَّ من السفر إليه، والعجبُ أنَّهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم، وفي التبجُّح بالظفر به، ولم يتعلّموا منه شيئاً أصلاً، كالمتضمخ بالنجاسة، يتعب في طلب الماء، حتى إذا وجده لم يستعمله، وبقي متضمِّخاً بالخبائث»[2].

«ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم، فكان حاصلُ ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة (فيثاغورس)، وهو رجلٌ من قدماء الأوائل، ومذهبه أركُّ مذاهبِ الفلسفة، وقد ردَّ عليه (أرسطاطاليس) بل استركَّ كلامه واسترذله، وهو المحكي في كتاب (إخوان الصفا) وهو ـ على التحقيق ـ حشو الفلسفة.

فالعجب ممن يتعبُ طوال العمر في طلب العلم، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغثّ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم! فهؤلاء أيضاً جربناهم، وسبرنا ظاهرهم وباطنهم، فرجع حاصلُهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلِّم، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلامٍ قويٍّ مفحمٍ؛ حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد. وقال: هات علمه! وأفدنا من تعليمه! وقف وقال: الآن إذا سلمتَ لي هذا فاطلبه، فإنَّما غرضي هذا القدرَ فقط. إذ علم أنَّه لو زاد على ذلك، لافتضحَ ولعجز عن حلِّ أدنى الإشكالات، بل عجز عن فهمه، فضلاً عن جوابه.

(١) المنقذ من الضلال، ص١١١.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٠.

فهذه حقيقةُ حالهم، فاخبرهم تقلهم، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً»[1].

إلى التصوف:

وهنالك أقبل الغزاليُّ إلى التصوف، وهو أمله الأخير في الحصول على السعادة واليقين، ونتركه يكمل الحديث، ويرسلُ النفس على سجيتها:

«ثم إني لما فرغتُ من هذه العلوم أقبلتُ بهمَّتي على طريق الصوفية، وعلمتُ أنَّ طريقتهم إنما تتمُّ بعلمٍ وعملٍ، وكان حاصلُ عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، وحتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسرَ عليَّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ـ رحمه الله ـ وكتب (الحارث المحاسبي) والمتفرقات المأثورة عن (الجنيد) و(الشبلي) و(أبي يزيد البسطامي) ـ قدس الله أرواحهم ـ وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعتُ على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلتُ ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلُّم والسماع، فظهر لي أن أخصَّ خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدُّلِ الصفات»[2].

وبعد ما يشرح الفرق بين العلم والحال، ويضرب لذلك الأمثال، يقول: «فعلمتُ يقيناً أنَّهم أرباب أحوالٍ، لا أصحاب أقوالٍ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصَّلته، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك»[3].

وهنالك يشعر الغزالي ـ بفطرته السليمة ومحاسبته الدقيقة ـ بنقصٍ فيه، وبعدٍ عن الحقيقة والحال، وعن مقام الإخلاص، ويشعرُ بالخطر المحدق به لو

(١) المنقذ من الضلال، ص١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٣ ـ ١٢٤.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٦.

استمر على هذه الحال، وهذا الشعورُ هو الذي يمتاز به الغزالي عن عالمٍ آخر كبير، وعن مدرِّسٍ موفَّقٍ تهيأت له أسباب النبوغ والمجد، وخضعت له الأوساط العلمية في عصره، وذلك الشعور هو الذي رفعه فوق مستوى عصره، وخلَّده في التاريخ، يقول في صراحةٍ وقوةٍ يمثل ما كان يعتوره من صراعٍ نفسي:

«وكان قد ظهر عندي أنَّه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفِّ النفس عن الهوى، وأنَّ رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بالإعراض عن الجاهِ والمالِ، والهرب من الشواغل والعلائق»

«ثم لاحظتُ أحوالي، فإذا أنا منغمسٌ في العلائق، وقد أحدقت بي من كل الجوانب، ولاحظتُ أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبلٌ على علومٍ غير مهمةٍ ولا نافعةٍ في طريق الآخرة».

«ثم تفكرتُ في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصةٍ لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلبُ الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنتُ أني على شفا جرفٍ هارٍ، وأني قد أشفيتُ على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال»[1].

ثم يذكر حالة التردد والاصطراع النفسي التي بقي فيها مدة، وصوَّر حالته النفسية تصويراً بارعاً:

«فلم أزل أتفكرُ فيه مدة ـ وأنا بعدُ على مقام الاختيار ـ أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى، لا تصدقُ لي رغبةٌ في طلب الآخرة بكرَّةٍ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة، فتفترها عشية، فصارت شهواتُ الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام. ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياءٌ وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعثُ الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار».

(١) المنقذ من الضلال، ص١٢٦ ـ ١٢٨.

«ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالةٌ عارضةٌ، إيَّاك أن تطاوعها، فإنَّها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها، وتركتَ هذا الجاه العريض، والشأن المنظومَ الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمنَ المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، وربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة»[1].

الغزالي يغادر بغداد:

ثم يذكر كيف غُلِبَ على أمره، وأفلت الزمامُ من يده، وانتقل من الاختيار إلى الاضطرار، حتى سهل عليه مفارقة الأهل والدار، ونفض اليد من الجاه والاعتبار، وخرج من بغداد يطلب السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية، حتى أكرمه الله بها، ولنستمع إليه فهو في نهاية المطاف:

«فلم أزل أتردَّدُ بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر؛ أولها رجب، سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمئة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حدَّ الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني، حتى اعتقل عن التدريس، فكنتُ أجاهدُ نفسي أن أدرّس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إليّ، فكان لا ينطقُ لساني بكلمةٍ واحدةٍ، ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العُقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم، ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغُ لي ثريدٌ، ولا تنهضم لي لقمةٌ، وتعدَّى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا: «هذا أمرٌ نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا أن يترَوحَ السر عن الهمِّ المُلمّ».

«ثم لما أحسستُ بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأتُ إلى الله تعالى التجاءَ المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرتُ عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام، حذراً أن يطلع الخليفة وجملةُ الأصحاب على عزمي على المقام بالشام، فتلطَّفت بلطائف

(١) المنقذ من الضلال، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

الحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً، واستهدفتُ لأئمة العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوزُ أن يكون الإعراض عما كنتُ فيه سبباً دينياً، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم».

«ثم ارتبك الناسُ في الاستنباطات، وظنَّ من بعد عن العراق أن ذلك كان؛ لاستشعارٍ من قبل الولاة، وأما من قرب من الولاة، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلُّقِ بي، والانكباب علي، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: هذا أمرٌ سماويٌّ، وليس له سببٌ إلا عينٌ أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم».

«ففارقتُ بغداد، وفرَّقتُ ما كان معي من المال، ولم أدَّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال؛ ترخيصاً بأنّ مالَ العراق مرصدٌ للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أرَ في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه».

«ثم دخلت الشام وأقمتُ به قريباً من سنتين، لا شغلَ لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما حصَّلته من علم الصوفية، فكنتُ أعتكف مدةً في مسجد دمشق، أصعدُ منارة المسجد طوال النهار، وأغلق بابها على نفسي».

«ثم رحلتُ منها إلى بيت المقدس، أدخلُ كلَّ يومٍ الصخرة، وأُغلقُ بابها على نفسي، ثم تحركتْ فِيَّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام. بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه، فسرت إلى الحجاز».

«ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودتُه بعد أن كنتُ أبعدَ الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضاً، حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر».

«وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغيّر وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقاتٍ

مختلفةٍ، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها»[١].

الاستقرار على طريق الصوفية:

وهنا يذكر الغزاليُّ الغاية التي وصل إليها، والنتيجة التي اقتنع بها في هذه الرحلة الشاقة، والتأملات العميقة الكثيرة، والبحث المضني:

«ودمتُ على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمورٌ لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره ينتفع به. إني علمت يقيناً أنَّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصةً، وأنَّ سيرتهم أحسنُ السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق؛ بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدِّلوه بما هو خيرٌ منه، لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسةٌ من نور مشكاة النبوَّة، وليس وراء نور النبوَّة على وجه الأرض نورٌ يستضاءُ به»[٢].

من الخلوة إلى الجلوة:

وكان ممكناً، بل كان من المتوقع، أن يبقى الغزالي في خلوته يتمتَّع بما هو فيه من نعيمٍ ولذةٍ روحيةٍ وصفاء نفسٍ، ويقتصر على ما التزمه من عبادات وأوراد وأشغال بخاصة النفس؛ ولكنَّ الغزالي لم يخلق ليعيش وحده، ولم تودع فيه هذه المواهب العظيمة، ولم يلهم دراسة هذه العلوم الكثيرة، ولم يرزق الاقتدار عليها؛ ليكون متعبِّداً، منطوياً على نفسه، معتزلاً في بيته، وكان الإسلام في حاجةٍ إلى من ينتصرُ له من الفلسفة التي تجاسرت عليه، وتسلَّطت على عقول الناس.

وقد أصيب المجتمع الإسلامي بفساد الأخلاق، وشللٍ في الفكر، وجمودٍ

---

(١) المنقذ من الضلال، ص١٢٨ ـ ١٣١.
(٢) المنقذ من الضلال، ص١٣١ ـ ١٣٢.

في العلم، فكان في حاجةٍ إلى من يحارب هذا الفساد، ويوقظ الفكر، ويبعث العلم، وكان الغزالي أجدر الناس بالاضطلاع بهذه الخدمة العظيمة؛ فقد تهيّأ لها علمياً وفكرياً وعملياً، وقد صرّح بذلك في غير تواضعٍ وفي غير أنانيةٍ فقال:

«رأيتُ نفسي مطالبةً بكشف هذه الشبهة، حتى كان فضحُ هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء؛ لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسِّمين من العلماء»[1].

وهنا اعترضت له حالة التردد مثل الأولى، هل يبقى في العزلة أم يخرج إلى الميدان؟ حتى ساقه سائق التوفيق إلى البروز، وتهيأت له الأساليبُ، يقول:

«انقدح في نفسي أنَّ ذلك (محاربة الفساد، والردّ على الفلاسفة والباطنية) متعيّنٌ في هذا الوقت محتومٌ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عمَّ الداءُ، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟

ثم قلتُ في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة، ومصادمةِ هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل؟ ولو اشتغلتَ بدعوةِ الخلق عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنّى تقاومهم؟ فكيف تعايشهم؟ ولا يتمُّ ذلك إلا بزمانٍ مساعدٍ، وسلطانٍ متديّنٍ قاهر».

«فترخصتُ بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة، وتعلُّلاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجَّة، فقدر الله تعالى أن حرَّكَ داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريكٍ من خارجٍ، فأمر أمرَ إلزامٍ بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة، وبلغ الإلزامُ حدّاً كان ينتهي ـ لو أصررتُ على الخلاف ـ إلى حدِّ الوحشة، فخطر لي أنَّ سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسلُ والاستراحة، وطلب عز النفس، وصونها عن أذى الخلق، ولم ترخّص نفسك لعسر معافاة الخلق، والله تعالى يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ . . .﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، ويقول عزَّ وجلَّ

(١) المنقذ من الضلال، ص١٥٠.

لرسوله، وهو أعزُّ خلقه ﷺ:

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ويقول عزَّ وجلَّ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يٰسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١ ـ ١١].

فشاورت في ذلك جماعةً من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك منامات إلى الصالحين كثيرة متواترة، تشهدُ بأنَّ هذه الحركة مبدأ خيرٍ ورشدٍ، قدَّرها الله على رأس هذه المئة، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مئة، فاستحكم الرجاءُ، وغلبَ حسنُ الظن بسبب هذه الشهادات، ويسَّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة، سنة تسعٍ وتسعين وأربعمئة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة، سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمئة، وبلغت العزلة إحدى عشرة سنةً، وهذه حركةٌ قدَّرها الله تعالى، وهي من عجائبِ تقديراته، التي لم يكن لها انقداحٌ في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد، والنزوع عن تلك الأحوال، مما خطر إمكانه أصلاً بالبال، والله تعالى مقلِّب القلب والأحوال وقلبُ المؤمنِ بين إصبعينِ من أصابعِ الرحمن»[1].

الفرق بين الحالتين:

لقد خرج الغزالي من عزلته، وبدأ يزاول عمله من تدريسٍ وتأليفٍ ودعوةٍ وإصلاحٍ، ولكن شتان بين الحالتين، لقد كان في الأولى ـ قبل أن يخرج من بغداد ـ يفعل ذلك عادة، أو بحكم الوظيفة، أو بدافعٍ من النفس، فأصبح الآن

(١) المنقذ من الضلال، ص١٥١ ـ ١٥٣.

يقوم به بأمرٍ من الله، متجرّداً عن طلب الجاه وحظوظ النفس، وقد شرح الفرق بين الحالتين، فقال:

«وأنا أعلم أنّي وإن رجعت إلى نشر العلم ما رجعتُ، فإنَّ الرجوع عَوْدٌ إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشرُ العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيّتي، وأما الآن، فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، فهذا هو الآن نيّتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصلُ إلى مرادي، أم أُحْتَرَمُ دون غرضي؟ ولكن أومن إيمان يقينٍ ومشاهدةٍ أنَّه لا حول ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم، وأني لم أتحرَّك؛ ولكنه حركني، وأني لم أعمل؛ لكنه استعملني، فأسأله أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحقَّ حقاً، ويرزقني اتّباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه»[1].

بقية حياته:

تولى الغزالي رئاسة المدرسة النظامية بنيسابور، عام(٤٩٩هـ)، وكان ذلك في عهد (سنجر السلجوقي)، ابن ملك شاه، ووزارة فخر الملك، ابن نظام الملك الطوسي، وقد اغتيل (فخر الملك) بيد باطني، سنة (٥٠٠هـ)، واعتزل الغزاليُّ التدريس على أثر هذه الحادثة، وأقام ببلدة طوس، وبنى مدرسةً وزاويةً بجوار بيته، وعكف على التعليم والتربية.

ولما استوزر السلطانُ (محمد بن ملك شاه) أحمد بن نظام الملك، سنة (٥٠٠هـ)، طلب الوزير من الغزالي الرجوع إلى بغداد، وكان محلُّه في المدرسة النظامية لم يسدّه من يماثل الغزالي، وكانت المدرسة مما تتباهى به الخلافة العباسية، وتتجمل به بغداد، فبدت الرغبةُ من الخلافة في أن يرجع الغزالي إلى النظامية، وكتب الوزير قوام الدين نظام الملك، رسالةً خاصَّةً إلى الغزالي، يذكر فيها مكانةَ النظامية، ومركزَها في العالم الإسلامي، وحرصَ الخليفة على رجوع الغزالي، وكانت عليها توقيعات أركان دار الخلافة، ولكنَّ الغزالي اعتذر، وبقي

(١) المنقذ من الضلال، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

في طوس يدرِّسُ ويفيد ويربِّي الطالبين.

وقضى الغزالي بقية أيامه في الاشتغال بالدين والعلم، وكان لا يزالُ فيه الروح العلمية قويةً وفتيةً، فلم ينقطع عن التأليف والإنتاج، وقد ألَّف كتاب (المستصفى) الذي يعدُّ من أركان أصول الفقه الثلاثة[1] في سنة (٥٠٤)، يعني قبل وفاته بعام.

وكان الغزالي لم يتوفر على دراسة الحديث، فأقبل عليه في أواخر أيامه، واستدعى أبا الفتيان، عمر بن أبي الحسن الرؤاسي الحافظ الطوسي، وأكرمه وسمع عليه (صحيحي) البخاري ومسلم[2] فقال عبد الغافر الفارسي: وكانت خاتمةُ أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ، ومجالسة أهله، ومطالعة (الصحيحين) البخاري ومسلم، اللذين هما حجة الإسلام[3].

وفاته:

وانتقل إلى رحمته تعالى يوم الإثنين، الرابع عشر من جمادى الآخرة، سنة خمسٍ وخمسمئةٍ، ودفن بظاهر قصبة طابران.

وقد حكى ابن الجوزي عن أخيه أحمد قصَّة وفاته، قال: «لما كان يوم الإثنين وقتَ الصبح، توضَّأ أخي وصلَّى، وقال: عليَّ بالكفن! فأخذه وقبَّله، ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعةً للدخول على الملك، ثم مدَّ رجليه، واستقبل، وانتقل إلى رضوان الله تعالى»[4].

لقد رأينا كيف تهيَّأ الغزالي ـ بعد الدراسات المتنوعة العميقة الواسعة، والمجاهدات الشاقَّة الطويلة، وبعد الانتهاء إلى معرفة الحق واليقين، والوصول إلى مقام الصدق والإخلاص ـ لأن يقوم بدوره في تاريخ الإصلاح والتجديد،

(١) وهي المعتمد لأبي الحسين البصري؛ والبرهان لإمام الحرمين؛ والمستصفى للغزالي.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٤/ ١١٢.
(٣) تبيين كذب المفتري، ص٣٩٦؛ وطبقات الشافعية الكبرى: ٤/ ١٠٩.
(٤) اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للسيد مرتضى الزَّبيدي البكرامي: ١/ ١١، نقلاً عن كتاب (الثبات عند الممات)، لابن الجوزي رحمه الله.

وأن يؤدّي رسالته كعالمٍ وناقدٍ ومصلحٍ ومتكلّمٍ وداعٍ، فلنرَ مقدار إنتاجه! ولنرَ مدى تأثيره في الأمة والمجتمع والعلوم والأفكار! وموعدنا الفصول التالية، إن شاء الله.

* * *

المحاضرة التاسعة

حجة الإسلام الغزالي

ناقد للفلسفة ومتكلم

نقسّم عمل الغزالي وإنتاجه وتجديده في ناحيتين رئيسيتين:

الأولى: **نقده للفلسفة ومناقشته لها**، وتجديده لعلم الكلام الذي فقد جدته وحياته.

والثانية: **الحسبة على المجتمع الإسلامي المعاصر**، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية، والروح، والتحلّي بالحقائق.

ونتناول الناحية الأولى بالبحث في هذه المحاضرة.

يمتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة، أنّهم اتّخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده، والاعتذار عن الدين الإسلامي، فكانت الفلسفة تهاجم الإسلامَ، وهؤلاء يدافعون عن الإسلام، وينفون التّهم الموجَّهةَ إليه، ويحاولون أن يبرروا موقفه، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته، فكأنَّ علم الكلام كان جُنَّةً تتلقى هجمات الفلسفة وتحصِّنُ العقيدة الإسلامية.

ولم يجترئ أحدٌ من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها؛ لعدم تعمقهم في الفلسفة، وتضلّعهم من أصولها وفروعها؛ ولعدم تسلُّحهم بالأسلحة التي يواجهون بها الفلسفة؛ ويوسعونها جرحاً ونقداً؛ فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية، وموقف الدفاع دائماً ضعيفٌ، غايته أن يسامحَ المتّهم، ويُعفى عنه.

أما الغزالي، فقد هاجم الفلسفة، وتناولها بالفحص والنقد، وهجم عليها هجوماً عنيفاً مبنيًا على الدراسةِ والبحث العلمي، وعلى حجّةٍ مثل حجة الفلسفة، وعقلٍ مثل عقل الفلاسفة الكبار ومدوِّني الفلسفة، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف

موقف المتهم، وألجأ ممثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين؛ فكان تطوُّراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية، عادت به الثقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها، وزالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية.

خطة الغزالي في نقد الفلسفة:

ولم يتهوَّر الغزالي في الهجوم على الفلسفة، ولم يكن فيه مقلِّداً لغيره، ولا ضيِّقَ التفكير، إنَّه درس الفلسفة أولاً، كما حكى هو بنفسه في (المنقذ من الضلال) ونقلنا عنه في المحاضرة الأولى[1]، وكان يؤمن بأنه «لا يقف على فساد نوع من العلوم مَنْ لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوزَ درجته» فجدَّ واجتهد في دراستها، ومعرفة حقيقتها وأغوارها، حتى اطلع على منتهى علومهم.

ثم لم يستعجل كذلك، ولم يبدأ بالهجوم، بل رأى أنَّ المباحث الفلسفية لا تزال غامضةً معقَّدةً، ليست في متناول الأوساط من الناس، وأنَّ الكتب الفلسفية قد أُلِّفت في لغةٍ رمزيةٍ وفي أسلوبٍ غير واضح، وكأنَّ مؤلفيها قد تعمَّدوا ذلك ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة، أو لم يكونوا يحسنون التأليف، فرأى أن يؤلِّفَ كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية، ونظريات الفلسفة ومسائلها في لغةٍ سهلةٍ واضحةٍ، وفي أسلوبٍ مشرقٍ ـ وقد رُزِقَ الغزاليُّ قدرةً **عجيبةً في تبسيط المسائل العلمية وإيضاحها** ـ فكسر ذلك السياج، ورفع الاحتكار العلمي، وألَّف كتابَ (مقاصد الفلاسفة) ذكر فيه المصطلحات الفلسفية والمباحث الفلسفية من غير تعليقٍ ونقدٍ، وعرض الفلسفة كأحسن ما يعرِضها رجالُ الفلسفة.

وبعد أن انتهى من هذا العمل ـ وكان يعدُّه مقدمةً لازمةً لما تكفَّله من تزييف الفلسفة، وإسقاط قيمتها العلمية ـ شرع في عمله الثاني الذي استحقَّ به أن يلقبَ حجّة الإسلام، وهو نقد الفلسفة والهجوم عليها.

---

(١) انظر المحاضرة الثامنة: حجة الإسلام الغزالي: حياته ودراسته، ص٢٥٧.

ولم يكن في هذه المرحلة الثانية أيضاً متهوِّراً أو جامداً يشمل الفلسفة كلَّها بفروعها وشعبها بالإنكار، ويطلق القول في العلوم الرياضية والمنطقية والسياسية والخلقية، وكل ما جاء عنهم في العلوم الطبيعية، فيغلِّطهم فيها، ويكفِّرهم بها، كما فعل كثيرٌ ممن تقدمه، وكثيرٌ ممن عاصره، فأثبتوا بذلك أنَّهم معاندون مكابرون، وكان ضررهم بذلك أكبر من نفعهم، ولم تكن لأقوالهم وكتاباتهم قيمةٌ علمية.

أما الغزالي فقد اعترف بكلِّ صراحةٍ، أنَّ القسم الكبير من هذه العلوم التي ذكرناها «ليس يتعلَّقُ شيءٌ منه بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمورٌ برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها»[1]، وانتقد أولئك الذين يرون أنَّ إنكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية، خدمةً دينيةً، ونصرةً للإسلام، ومحاربة للكفر والضلال، فكان جهادُهم في غير عدو، وكانت جنايةً على الدين.

يقول في كتابه (المنقذ من الضلال):

«الآفة الثانية، نشأت من صديقٍ للإسلام جاهل، ظنَّ أنَّ الدين ينبغي أن يُنصرَ بإنكار كلِّ علمٍ منسوبٍ، فأنكر جميعَ علومهم، وادَّعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أنَّ ما قالوه على خلاف الشرع، فلمَّا قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشكَّ في برهانه، لكن اعتقد أنَّ الإسلام مبنيٌّ على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حباً، وللإسلام بغضاً، ولقد عظم على الدين جنايةً مَنْ ظنَّ أنَّ الإسلام يُنْصَرُ بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرُّضٌ لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرُّضٌ للأمور الدينية».

وبعد النظر في جميع فروع الفلسفة، والاعتراف بصحَّة بعضها وإفادتها، انتهى إلى أنَّ (الإلـهيات) فيها أكثرُ أغاليطهم، وعلَّله «بأنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها»[2].

---

(١) المنقذ من الضلال ص٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص٩٢.

والناظرُ المتأمِّلُ يشعر بأنَّ السبب في إصابتهم وتوفيقهم في العلوم الرياضية والطبيعية، وأغاليطهم وتناقضاتهم وتخيّلاتهم في (الإلـٰهيات) هو أنَّ العلوم الرياضيـة والطبيعية مثلاً لها مبادئ ومقدِّمات ومحسوسـات عرفها الفلاسـفة، ومعلومات أولية توصلوا بترتيبها إلى أمور مجهولة.

أما (الإلـٰهيات) فبالعكس، ليس فيها مبادئ ومقدمات ومحسوسات، ومعلومات أولية، يتوصلون بها إلى أمور مجهولة، وليس فيها أسـاسٌ للقياس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم، وجاءت فلسفتهم فيها مجموعَ أوهام وقياسات وتخيلات وتخمينات، وكان ذلك بطبيعة الحال مدعاةً إلى خطأ تصوراتهم عن الأمور الغيبية التي لا تعرف إلا عن طريق الشرع المعصوم عن الخطأ.

تهافت الفلاسفة:

وفي الـردُّ على هذه الفلسـفة الإلـٰهية ألَّف الغزالي كتابـه العظيم (تهافـت الفلاسفة) وقد صدَّره بمقدمةٍ بليغةٍ واضحةٍ، ذكر فيها سبب التأليف، وذكر تأثير الفلسفة في أذهان الناشئة، وكيف تدرج بهم الخضوع لبراعة الفلسفة في العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية، والإيمان بذكائهم وعبقريتهم، إلى التحلُّل من ربقة الإسلام، لما رأوا أنَّ هؤلاء ـ مع رزانة عقولهم وغزارة علمهم ـ منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل «فألحدوا وأنكروا الدين تظرُّفاً وتكايُساً، وعظمت الفتنة، ومست الحاجة إلى تأليف كتابٍ يبيّن تهافت عقيدة فلاسفة اليونان، وتناقض كلمتهم في ما يتعلق بالإلـٰهيات، ويبيّن أنَّ هذه المسـائل التي يأخذها المقلِّدون كحقائـق علمية، وقضايـا عقليـة «هي ـ على التحقيق ـ مضاحك العقلاء، وعبرةٌ عند الأذكياء» وبيَّن أنَّه لم يذهب إلى إنكار الله واليوم الآخر إلا شِرْذمةٌ قليلةٌ من ذوي العقول المنكوسة، والآراء المعكوسة، ونحن ننقل هذه المقدمة؛ إذ فيها تصويرٌ بارعٌ لعقلية الملحدين المقلِّدين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتصويرٌ بصفةٍ خاصَّةٍ للعصر الذي كان يعيش فيه، ونعرف عِظَمَ الحاجة إلى تأليف هذا الكتاب، وغنائه في نصرة الدين، يقول:

«أما بعد، فإني قد رأيتُ طائفةً يعتقدون في أنفسهم التميُّزَ عن الأتـراب

والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء، وقد رفضـوا وظائف الإسـلام من العبـادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقّي عن المحظـورات، واستهانوا بتعهدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكليـة رِبقةَ الدين بفنونٍ من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدُّون عن سـبيل الله ويبغونها عوجاً، وهم بالآخرة هم كافرون، ولا مستندَ لكفرهم غير تقليدٍ سماعيٍّ كتقليد اليهود والنصارى، إذ جرى على غير دين الإسلام نشوؤهم وأولادهم، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم، وغير بحث نظري صادر عن التعثُّر بأذيال الشُّبَهِ الصارفة عن صوب الصواب، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب، كما اتفق لطوائـف من النظّار في البحث عن العقائـد والآراء من أهـل البـدع والأهواء.

وإنَّما مصدر كفرِهم سماعُهم أسماءً هائلةً: كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسـطاطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم وضُلالهم في وصف عقـولهـم، وحسـن أصـولهـم، ودقَّـة علـومهـم الهنـدسيـة والمنطقيـة والطبيعيـة والإلـٰهية، واستبدادهم ـ لفرط الذكاء والفطنة ـ باستخراج تلك الأمور الخفية، وحكايتهم عنهم أنهم ـ مع رزانةِ عقولهم، وغزارة فضلهم ـ منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلَّفة، وحيلٌ مزخرفة.

فلما قرع ذلك سمعَهم، ووافق ما حُكي من عقائدهم طبعَهم، تجمَّلوا باعتقاد الكفر؛ تحيُّزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم؛ وانخراطاً في سلكهم؛ وترفُّعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء؛ واسـتنكافاً من القناعة بأديان الآباء، ظنّاً بـأنَّ إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمالٌ، وغفلةً منهم عن أنَّ الانتقال إلى تقليدٍ عن تقليدٍ خرقٌ وخبالٌ، فأية رتبةٍ في عالم الله أخسُّ من رتبة من يتجمَّلُ بترك الحق المعتقد تقليداً، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً، **والبله من العوام بمعزلٍ عن فضيحة هذه المهواة، فليـس في سجيتهم حُبُّ التكايس بالتشبه بذوي الضلالات، فالبلاهةُ أدنى إلى الخلاص من فطانةٍ بتراء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرةٍ حولاء.**

فلمّا رأيتُ هذا العِرْقَ من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء، انتدبتُ لتحرير هذا الكتاب، ردّاً على الفلاسفة القدماء، مبيّناً تهافتَ عقيدتهم، وتناقضَ كلمتهم في ما يتعلق بالإلٰهيات، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته، التي هي ـ على التحقيق ـ مضاحِكُ العقلاء، وعبرةٌ عند الأذكياء، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه؛ ليتبيَّنَ هؤلاء الملاحدةُ تقليداً اتفاق كلٍّ مرموقٍ من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن الاختلافات راجعةٌ إلى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين، اللذين لأجلهما بُعثَ الأنبياء المؤيَّدون بالمعجزات، وأنَّه لم يذهب إلى إنكارهم إلا شِرْذِمةٌ يسيرةٌ من ذوي العقول المنكوسة، والآراء المعكوسة، الذين لا يُؤبه لهم، ولا يعبأ بهم في ما بين النظار، ولا يعدون إلا في زمرة الشياطين الأشرار، وغمار الأغبياء والأغمار، ليكفَّ عن غلوائه مَنْ يظنُّ أنَّ التجمل بالكفر تقليداً يدلُّ على حسن رأيه، ويشعر بفطنته وذكائه، إذ يتحقق أنَّ هؤلاء الذين يتشبَّه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم، برآء مما عرفوا به من جحد الشرائع، وأنهم مؤمنون بالله، ومصدِّقون برسله، وأنهم قد اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الأصول، قد زلُّوا فيها، فضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السبيل، ونحن نكشف عن فنون من خدعوا به من التخاييل والأباطيل، ونبيّن أنْ ليس كل تهويلٍ وراءه تحصيل، والله تعالى ولي التوفيق لإظهار ما قصدناه من التحقيق»[1].

ويشرع الغزالي، بعد أربع مقدماتٍ ذكر فيها مناهجه في البحث، وشرح حال الفلاسفة، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة، والتي لا تصادمها، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ومقدِّماتهم للبحوث الإلٰهية، بعد هذا كله، يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلاسفة ومناقشتهم في ذلك، في ضوء البحث العلمي والحجَّة العقلية، وهي ست عشرة مسألةً في الإلٰهيات، وما بعد الطبيعيات، وأربع في الطبيعيات، ويبيِّن فيها ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم.

(١) تهافت الفلاسفة، ص٣١ ـ ٣٤ طبعة إحياء الكتب العربية.

ميزة الكتاب:

ويتَّسم هذا الكتاب بقوة التعبير، وسلامة العبارة، وسهولة الأسلوب، بخلاف عامة الكتب التي ألفت في الموضوع، ويدل على أنَّ مؤلِّفه ممتلئ بالإيمان والثقة بدينه، والاعتداد بشخصيته وتفكيره، وينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء، ورجال من مستواه العقلي والفكري، يناقشهم ويباحثهم بحريةٍ واعتدادٍ، ويقرع الحجة بالحجة.

وكان المسلمون في حاجةٍ شديدةٍ إلى هذا الطراز من المؤلفين والباحثين الذي يواجه الفلسفة بإيمان، وثقة، وعقل حر، وشجاعة علمية، ويكفر بعصمة الفلاسفة، وقدسيتهم وعبقريتهم، وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير، وبهذه الصفة يتجلّى الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) فجاء في أوانه، وقضى حاجة زمانه.

ولا يقتصر الغزالي على مجابهة الفلسفة ومهاجمة الفلاسفة بالدليل؛ بل قد يبلغ إلى التهكم والنقد اللاذع، ولا شكَّ أنَّ لهما تأثيراً كبيراً في مجتمعٍ قد كاد يؤخَذُ بسحر الفلسفة، وقد أصيبَ كثيرٌ من أفراده بمركَّب النقص، وخضع للفلسفة خضوعاً كاملاً، فجاء تهكُّمُ الغزالي ونقدُه اللاذع علاجاً لهذه النفوس المريضة.

ومن أمثلة هذا التهكُّم والنقد اللاذع، تعليقُه على ما قاله الفلاسفة في الذات الإلٰهية وصفاتها، وعلى ما صنَّفوه من نسب العقول والأفلاك، وكيف تولَّد بعضها من بعض. قال بعد ما ذكر هذا الهراء: «قلنا: ما ذكرتموه تحكُّماتٌ، وهي ـ على التحقيق ـ ظلماتٌ فوق ظلماتٍ، لو حكاه الإنسان عن منامٍ رآه لاستُدلَّ على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات، التي قصارى المطلب فيها تخميناتٌ، لقيل: إنَّها ترَّهاتٌ، لا تفيد غلبات الظنون»[1].

وقال في موضعٍ آخر: «لست أدري، كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟»[2].

(١) تهافت الفلاسفة، ص١١٥.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

وعلّقَ على بحثهم في علم واجب الوجود، وأنّه يعقل نفسه، ولا يعقل غيره، بكلمتِه اللاذعةِ القويةِ: «فقد انتهى بهم التعمُّق في الفطنة، إلى أن أبطلوا كلَّ ما يفهم من العظمة، وقرّبوا حاله تعالى من حال الميت، الذي لا خبر له بما يجري في العالم، إلا أنّه فارق الميت في شعوره بنفسه فقط.

وهكذا يفعل الله سبحانه بالزائغين عن سبيله، والناكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١]، ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦]، المعتقدين أنَّ أمور الربوبية تستولي على كنهها القوى البشرية، المغرورين بعقولهم، زاعمين أنَّ فيها مندوحة عن تقليد الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأتباعهم ـ رضوان الله عليهم ـ فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأنَّ لباب معقولاتهم رجعَ إلى ما لو حُكِيَ في منامٍ لتُعجِّب منه»[1].

وهكذا يستمر الغزالي في نقد الفلسفة وتشريحها إلى آخر الكتاب، حتى يأتي على جميع المسائل التي تكفَّلَ بالرد عليها، وهي عشرون مسألةً، أكثرها في الإلهيات، وكفَّرهم في ثلاث مسائل.

إحداها: **مسألة قدم العالم**، وقولهم: إنَّ الجواهر كلَّها قديمةٌ.

والثانية: **قولهم: إنَّ الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.**

والثالثة: **إنكارهم بعث الأجساد وحشرها.**

قال: «فهذه المسائل الثلاث، لا تلائم الإسلام بوجهٍ، ومعتقدُها معتقدٌ كذبَ الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأنَّهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة؛ تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً، وهذا هو الكفرُ الصراح، الذي لم يعتقده أحدٌ من فرق المسلمين»[2]، وتوقَّف في تكفيرهم في المسائل الأخرى.

---

(١) المنقذ من الضلال، ص١١٨.

(٢) المصدر السابق، ص٣١٣ـ٣١٥.

تأثير الكتاب:

وليست أهمية الكتاب في تكفير الفلاسفة؛ بل إنَّ غاية الكتاب هو إسقاط قيمة الفلسفة العلمية، والحط من مكانتها، وإثبات أنها مجموعة أفكارٍ وتخيُّلاتٍ، وقياساتٍ وتخميناتٍ. وبذلك خدم الغزاليُّ الدين خدمةً باهرةً، وخلف الفلسفة التي كانت تتقدم بخطىً سريعة وواسعة، وتسيطر على عقول الناشئة، وتحل من نفوسهم محل القدسية والإجلال، خلَّفها الغزاليُّ بضرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الوراء، أو وقفها على الأقل، وشغلها بنفسها، وبالدفاع عن نفسها، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تقدِّمَ كتاباً قوياً جديراً بالذكر يردُّ على (تهافت الفلاسفة) حتى جاء ابن رشد (م٥٩٥) في آخر القرن، فألف كتابه (تهافت التهافت) يقول علماء الإفرنج: «إنَّ الغزاليَّ طعنَ الفلسفة في الشرق العربي طعنةً قاضيةً، وكاد يكون نصيبها في الغرب كذلك، لو لم تلقَ ابن رشد حامياً لها أحياها قرناً من الزمان»[1].

ردُّه على الباطنية:

ولم يقتصر الغزالي على الردِّ على الفلسفة؛ بل عُني كذلك بالردِّ على الباطنية، التي تدرَّعت بالفلسفة، وظهرت في مظهرٍ دينيٍّ وسياسيٍّ؛ فكانت أشدَّ خطراً على الإسلام من الفلسفة؛ إذ كانت الفلسفة تعيش في عزلةٍ علميةٍ، وكانت قليلةَ الاتصال بالشعب والجمهور، وكانت ـ كما يصف الأستاذ (أحمد أمين) ـ «كالسفارات الأجنبية» لا شأن لها بالسياسة الداخلية والشؤون الاجتماعية، ولا شأن لها بالجمهور.

أما (الباطنية) فكانت تتسرب إلى المجتمع، وتنفث سمومها فيه، وكانت لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحدٌ أجدر بالردِّ عليها، والكشف عن أسرارها، ونقض ما تُبنى عليه دعوتها من الغزالي لجمعه بين التضلُّع من الفلسفة والوقوف على لُبِّ التصوف وعلم الباطن، ولاتّصافه بالغوص في حقائق الأشياء، والتعمق في العلوم، وتلك

---

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، تأليف محمد لطفي جمعة، ص٧٢.

بضاعة الباطنية التي تتبجَّحُ بها.

وقد سبق أنَّه ألَّفَ ـ وهو مدرِّسٌ في المدرسة النظامية ـ كتاباً في الردِّ على الباطنية، باقتراحٍ من الخليفة المستظهر بالله أسماه (المستظهري)، وقد ألف ثلاثة كتبٍ في الرد عليهم ـ ولعلَّ ذلك بعد الرجوع من رحلته ـ وهي: (حجة الحق)، و(مفصل الخلاف)، و(قاصم الباطنية) ذكرها في كتابه (جواهر القرآن)، ويوجد في جريدة مؤلفاته كتابٌ آخر وهو (مواهم الباطنية)[1].

علم الكلام:

لم يكن لمثل الغزالي ـ مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر، وعلمه الذي لم يزل في نموه مستمر ـ أن يكون ناقلاً لكلام المتكلِّمين المتقدِّمين، أو يكون شارحاً له فحسب، ولا تظهر شخصيته العلمية في ما يكتب ويؤلِّف ويفكر.

لقد كان علمُ الكلام أحوجَ العلوم والمباحث إلى النمو والتطور ومسايرة العصر، لأنَّه يتكفَّل بالإقناع ودفع الشبهات، والعقل الإنساني متطوِّر، والشبه والأسئلة تتجدَّدُ، ولكلِّ عصرٍ تفكيره ومشاكله، ولكنَّه جمد جمود العلوم النقلية، وغلب عليه التقليد، وأصبح يُتناقل كروايةٍ، **وأصبح المتكلِّمون الأشاعرة لا يطالبون بتسليم عقائدهم فقط، بل يلحّون على تسليم المقدمات والدلائل التي استدل بها الإمام أبو الحسن الأشعري، والعلاّمة أبو بكر الباقلاني، لإثبات هذه العقائد، ويلحون على الاكتفاء بها، ويعدون العدول عن مسلك الأشعري قيد شعرة؛ حتى العدول عن المقدمات التي أقامها علماء الأشاعرة المتقدمون، ضرباً من البدع والانحراف عن الصراط المستقيم.**

لم يخضع الغزالي لهذا التفكير ولهذا التقليد في علم الكلام وإثبات عقيدة

(١) لم يطبع من كتبه في الرد على الباطنية، إلا (فضائح الباطنية) وهو المعروف بالمستظهري. نشر منه (كولد تسيهر) قسماً كبيراً، وبحث فيه بحثاً طويلاً باللغة الألمانية، طبع في لندن ١٩١٦ مع المتن العربي، أما الكتب الأخيرة فمفقودة. كما يظهر من مقدمات (المنقذ من الضلال) للأستاذين جميل صليبا وكامل عياد. [وقد طبع كتاب (فضائح الباطنية) كاملاً بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ الناشر].

الإسلام، وتكلَّم في مؤلفاته العظيمة عن عقائد الإسلام والمباحث الكلامية كلامَ مجتهدٍ، كلامَ واعٍ يعرفُ عقلية أهل عصره، ويعرف من أين يدخل إلى عقولهم وقلوبهم، وأقام على هذه الحقائق مقدمات ودلائل جديدة.

وجاء في كلامه في صفات الله تعالى، ومعجزات الأنبياء، والتكليفات الشرعية، وإثبات العذاب والثواب، والبرزخ والمعاد، والجبر والاختيار، والقضاء والقدر، بمقدمات وأمثلة، تورث الإذعان، وتفتح القلب للإيمان.

ولم يسبق إليها، وعدل عن تشكيكات المتكلِّمين، ومقدماتهم المنطقية إلى أسلوبٍ واضحٍ مشرقٍ، تسيغه العامة وأوساط الناس، ولا يناقشه الخاصة والعلماء، ولم يلتزم تقليد الأشعري وأتباعه في الكلام التقليدَ المطبق؛ بل عدل عنه في مسائل قليلة؛ وبذلك قام بدور التجديد في علم الكلام، الذي عجز في الدور الأخير عن إقناع الأذكياء من الشباب والمتعلِّمين، وإفحام الأقوياء من الباحثين والمعترضين، واستحقَّ بذلك كلَّه تقدير علماء الكلام، ورجال المدرسة الأشعرية الفكرية بصفةٍ خاصةٍ، إذ أعاد إليها الحياة والوقار، واستحقَّ شكرهم وثناءهم، ولكن بالعكس، استهدف الغزالي للأئمة الأشعرية، وفقهاء زمانه، واستهدف لعتابهم وسخطهم، لأنَّه خرج عن الطريق المرسوم، وجاء بشيءٍ طريفٍ لم يجدوه في كتبهم القديمة، ولم يسمعوه من أساتذتهم، وخالف في بعض المسائل الأشعريَّ وأتباعه، ويظهر أنَّ بعض المتحمسين من هؤلاء قد شموا في بحوثه الطريفة رائحة الزيغ والضلال، ولما انتشر كتابُه العظيم (إحياء علوم الدين) في العالم الإسلامي، وعظم الإقبال عليه، والعناية به ـ وهو مشتملٌ على جزءٍ كبيرٍ من هذه البحوث، والأمثلة العديدة ـ اشتدت لائمتهم، وصار بعضهم يشكُّ في صحة عقيدته واستقامته، وقد كتب إليه بعض تلاميذه ومحبيه بذلك، وأظهر توجعه وحزنه، لما يرى من العلماء والمعاصرين من التجهّم له، والتشكك في عقيدته، ونسبته إلى الزيغ والانحراف، وأجاب عن ذلك الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) يقول فيه:

«أما بعد، فإني رأيتُك ـ أيُّها الأخُ المشفق، والصديق المتعصِّب ـ موغرَ الصدر، مقسَّم الفكر، لما قرع سمعَك من طعن طائفةٍ من الحسدة على بعض كتبنا المصنَّفة في أسرار معاملات الدين، وزعمهم أنَّ فيها ما يخالف مذهب

الأصحاب المتقدمينْ، والمشايخ المتكلمين، **وأنَّ العدول عن مذهب الأشعري ـ ولو في قيد شبر ـ كفر، ومباينته ـ ولو في شيءٍ نزر ـ ضلالٌ وخُسْر.**

فهوِّن ـ أيها الأخ المشفق المتعصب ـ على نفسك، لا يضق به صدرك! وقلَّ من غَرْبِكَ قليلاً! ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠]، واستحقر من لا يُحسدُ ولا يُقْذفُ! واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يُعرف! فأيُّ داعٍ أكمل وأعقل من سيد المرسلين ﷺ؟! وقد قالوا: إنه مجنون من المجانينَ، وأي كلامٍ أجلُّ وأصدق من كلام رب العالمين؟! وقد قالوا: إنه أساطير الأولين، وإياكَ أن تشتغل بخصامهم، وتطمع في إفحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوت في غير مسمع، أما سمعت ما قيل:

كلُّ العداوةِ قدْ تُرجى سلامَتُها إلا عداوةَ مَنْ عاداكَ عَنْ حَسَدِ»[1]

وبعد ما ذكر دوافع هذا الإنكار والمخالفة، وأنَّ الحامل على ذلك طلب الجاه والمال، وأنَّ بضاعة المعترضين في العلم مسألةُ النجاسة، وماء الزعفران وأمثالها[2]، وقال مخاطباً تلميذه الذي وجه إليه هذه الرسالة:

«فخاطب نفسك وصاحبك! وطالبه بحدُّ الكفر! فإن زعمَ أنَّ حدَّ الكفر ما يخالف مذهبَ الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي أو غيرهم، فاعلم أنه غِرٌّ بليدٌ، قد قيده التقليد؛ فهو أعمى من العميان؛ فلا تضيع بإصلاحه الزمان! وناهيك حجةً في إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجدُ بين نفسه وبين سائر المقلِّدين المخالفين له فرقاً وفصلاً، ولعلَّ صاحبَه يميلُ مِنْ بين سائر المذاهب إلى الأشعري، ويزعم أنَّ مخالفته في كل وِزْدٍ وصدرٍ كفرٌ من الكفر الجليّ. فاسأله:

من أين ثبت له كون الحق وقفاً عليه، حتى قضى بكفر الباقلاني، إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى، وزعم أنه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات؟

ولم صار الباقلاني أولى بالكفر لمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني؟

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص٧ ـ ٨ مطبعة الترقي.
(٢) المرجع السابق، ص١٠.

ولم صار الحقُّ وقفاً على أحدهما دون الثاني؟ أكان ذلك لأجل السبق في الزمان؟ فقد سبق الأشعريَّ غيرُه من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأيِّ ميزانٍ ومكيالٍ قدَّرَ درجات الفضل؛ حتى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده؟ فإن رخص للباقلاني في مخالفته، فلم حجر على غيره؟

وما الفرق بين الباقلاني والكرابيسي والقلانسي وغيرهم! وما مَدْرك التخصيص بهذه الرخصة؟

وإن زعم أن خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظٍ لا تحقيق وراءه، كما تعسَّفَ بتكلفه بعضُ المتعصبين، زاعماً أنَّهما متوافقان على دوام الوجود، والخلاف في أنَّ ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصفٍ زائدٍ عليه خلافٌ قريبٌ لا يوجبُ التشديد، فما باله يشدِّدُ القول على المعتزلي في نفيه الصفات؟! . . . إلخ»[1].

ناقش الغزاليُّ في هذه الرسالة خصمه في هذا التفكير الضيّق، وذكر أنَّ الفحول من العلماء، والمستقلين بالتفكير، لم يزالوا ينظرون في المسائل نظر المجتهدين، ويدلون بآرائهم، وأنَّ العدول عن رأيٍ سابقٍ في بعض وجهات النظر لا يعتبر مروقاً في الدين قال:

«ولعلَّك ـ إن أنصفتَ ـ علمتَ أنَّ من جعل الحق وقفاً على واحدٍ من النظَّار بعينه، فهو إلى الكفر والتناقض أقربُ.

أمَّا الكفر: فلأنَّه نزَّله منزلةَ النبيِّ المعصوم من الزلل، الذي لا يثبتُ الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزمُ الكفر إلا بمخالفته.

وأمَّا التناقضُ: فهو أنَّ كلَّ واحدٍ من النظَّار يوجِبُ النظر، وأن لا ترى في نظرك إلا ما رأيتُ، وكلُّ ما رأيتَه حجةٌ. **وأيّ فرقٍ بين من يقول: قلّدني في مجرَّد مذهبي، وبين من يقول: قلّدني في مذهبي ودليلي جميعاً، وهل هذا إلا التناقض؟»**[2].

(١) فيصل التفرقة، ص١١ ـ ١٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٨.

ومع كون الغزالي من كبار متكلِّمي الإسلام ومن كبار النظار، فهو لا يوافقُ علم الكلام في جميع اتجاهاته؛ بل ينتقده على غلوِّه وإسرافه، وينتقد المتكلِّمين على مؤاخذة عوام المسلمين بعلم الكلام، وتكليفهم بمعرفة الدلائل الكلامية، والتقسيمات المرتبة، وأنَّ من يجهل ذلك، ولم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلَّة المحررة، فهو ناقصٌ في دينه، أو شاكٌّ في يقينه.

وبيَّنَ ـ في شجاعةٍ وصراحةٍ ـ أنَّ الأمر أوسع من ذلك، وأنَّ الإيمان له وسائل وطرق لا تنحصر في علم الكلام. يقول رحمه الله:

«مِنْ أشدِّ الناس غلوّاً وإسرافاً، طائفةٌ من المتكلِّمين، كفَّروا عوام المسلمين، وزعموا أنَّ مَنْ لا يعرِفُ الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها، فهو كافرٌ، فهؤلاء ضيَّقوا رحمة اللهِ الواسعة على عباده أولاً، وجعلوا الجنَّةَ وقفاً على شِرْذِمةٍ يسيرةٍ من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواتر من السنَّة ثانياً؛ إذ ظهر لهم في عهد رسول الله ﷺ، وعصر الصحابة رضي الله عنهم، حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب، كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه، ومَنْ ظنَّ أنَّ مَدْرَكَ الإيمان الكلام، والأدلة المجردة، والتقسيمات المرتبة، فقد أبدع جدَّ الإبداع، **بل الإيمانِ نورٌ يقذفه الله في قلوب عبيده، عطيَّةً وهديَّةً من عنده، تارةً ببيِّنة من الباطن، لا يمكنه التعبير عنها، وتارةً بسبب رؤيا المنام، وتارةً بمشاهدةِ حالِ رجلٍ متدينٍ، وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارةً بقرينة حال»**[1].

ويقول بعد سطور:

«نعم! لست أنكر أنَّه قد يجوز أن يكونَ ذِكرُ أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حقِّ بعض الناس، ولكن ليس بمقصورٍ عليه، وهو أيضاً نادرٌ، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمِلُ عليه القرآن.

فأما الكلام المحرَّرُ على رسم المتكلمين، فإنَّه يشعِرُ نفوسَ المستمعين بأنَّ فيه صنعة وجدل، ليعجز عنه العاميُّ، لا لكونه حقاً في نفسه؛ وربما يكون ذلك

(١) فيصل التفرقة، ص٦٧ ـ ٦٨.

سبباً لرسوخ العناد في قلبه، ولذلك لا ترى مجلسَ مناظرةٍ للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحدٍ انتقل من الاعتزال أو بدعةٍ إلى غيره، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة، ولا على العكس.

وتجري هذه الانتقادات بأسبابٍ أخرى، حتى في القتال بالسيف؛ ولذلك لم تجرِ عادةُ السلف بالدعوة لهذه المجادلات؛ بل شدَّدوا القولَ على من يخوض في الكلام، ويشتغل بالبحث والسؤال»[1].

وازداد الغزالي ـ مع الأيام، وبعد التجارب العلمية ـ اقتناعاً بأنَّ أسلوب القرآن في الإقناع أبلغُ وأنفعُ وأعمُّ وأشملُ للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة، **وبأنَّ علمَ الكلام علاجٌ مؤقَّتٌ ومختصٌّ بمن نشأت عنده شكوكٌ وشبهاتٌ، ولا حاجةَ للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه.**

أمَّا القرآن فكالغذاء الصالح؛ والماء السائغ، يحتاجُ إليهما كلُّ إنسانٍ وينتفع، ولا ضرر فيه ولا خطر.

يقول في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) الذي هو من آخر مؤلَّفاته:

«فأدلَّة القرآن مثل الغذاء، ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء، ينتفع به آحاد الناس، ويستضرُّ به الأكثرون؛ بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبيُّ الرضيعُ، والرجلُ القويُّ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفعُ بها الأقوياء مرَّةً، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»[2].

ويذكر تجربته ومشاهدته كشاهدٍ على ذلك:

«والدليلُ على تضرُّرِ الخلق به، المشاهدة والعيان والتجربة، وما ثار من الشرّ منذ نبغ المتكلمون، وفشت صناعة الكلام، مع سلامةِ العنصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك»[3].

(١) فيصل التفرقة، ص٦٩ ـ ٧٠.
(٢) إلجام العوام عن علم الكلام، المطبعة الميمنية، ص٢٠.
(٣) المصدر السابق نفسه.

وهكذا تتجلّى شخصيةُ الغزالي في نقد الفلسفة وعلم الكلام، شخصية فريدة مستقلة التفكير، قوية التأثير، تمتاز بسلامة الفكر، واتزان العقل، وحصافة الرأي، وعمق النظر، والثقة بالنفس، له منهجٌ خاصٌ في نقد الفلسفة، وفي علم الكلام، وإثبات العقيدة الإسلامية، وهو ممن توفَّرت عنده أدوات الاجتهاد في هذا الموضوع، فكان من أئمة هذا الفن المجتهدين، ومن كبار المؤلفين المنتجين.

* * *

المحاضرة العاشرة

حجة الإسلام الغزالي

مُصلح اجتماعي

تحدّثنا في الفصل السابق عن أولى الناحيتين الرئيسيتين في تجديد الغزالي وإصلاحه، وهي ناحيةُ **نقد الفلسفة**، **وتجديد علم الكلام**، ونتحدث في هذا الفصل عن الناحية الثانية، **الحسبة على المجتمع الإسلامي المعاصر**، **والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية**، والروح، **والتحلّي بالحقائق**، ويمثل هذه الناحية كتابه العظيم (إحياء علوم الدين).

إحياء علوم الدين:

إنَّ كتاب (إحياء علوم الدين) من كتب الإسلام المعدودة التي أثَّرت في حياة المسلمين وتفكيرهم تأثيراً عميقاً، وظلَّت تسيطرُ على عقولهم ونفوسهم زمناً طويلاً، ولا يزالُ له نفوذٌ في الأوساط الدينية ليس لغيره، ولم يزل العلماء وأهل النظر يثنون عليه، ويعترفون بجلالة مكانته وتأثيره.

قال الحافظ الإمام زين الدين أبو الفضل، المعروف بالعراقي، صاحبُ (الألفية) في مصطلح الحديث (م٨٠٦هـ): «إنَّه من أجل كتب الإسلام»[١]، وقال الشيخ عبد الغافر الفارسي ـ وهو معاصرٌ للغزالي، ومن تلاميذ إمام الحرمين: «إنَّه من تصانيفه المشهورة التي لم يُسْبَقْ إليها»[٢]، وقال الشيخ أبو محمد الكازرَوني: «لو مُحِيتْ جميعُ العلوم لاستُخرِجَتْ من الإحياء»[٣].

وكان الإمام النووي شديدَ الإعجاب به، عظيمَ الشغف.

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس، ص١٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٥.
(٣) المصدر السابق نفسه.

إنَّ لهذه الأقوال، وكثيراً مما نقله الآخرون، إن لم تخلُ من شيءٍ من المبالغة، فإنَّها تدلُّ على خضوع الناس لتأثير الكتاب، وظلَّ العلماء عاكفين على مطالعته وشرحه[1] وتلخيصه.

وكان الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) ينتقد على الغزالي في مواضع كثيرة، ويرى أنَّ كتاب (الإحياء) قد اشتمل على أحاديث كثيرة لا تصح ولا تثبت على طريقة المحدثين[2]، ومع ذلك يعترف بتأثيره، وقد اختصر (الإحياء) في كتابٍ سماه (منهاج القاصدين).

وقد صنَّف الغزالي هذا الكتاب، وقد خرج من بغداد في طلب السعادة واليقين، واشتغل بالعبادة والمجاهدة والانقطاع عن الناس، ومرَّت به أدوارٌ من الخوف والرجاء، والزهد والتبتّل، والمعرفة واليقين.

وصنَّف هذا الكتاب بعد ما تذوَّق كلاً من هذه الأحوال؛ فجاء الكتاب صورةً لنفسيته وانطباعاته وتأملاته؛ لذلك كان شديدَ التأثير في نفوس قرائه؛ ولذلك نجده يتدفَّقُ حياةً وقوة.

لقد رأى الغزاليُّ ـ بعد ما أكرمه الله بالسعادة الروحية، والمعرفة الحقيقية، وانكشفت له حقيقة العلم ـ حقيقةَ ما فيه أهل الدنيا، من العكوف على اللذات وعبادة الشهوات، والتكالب على الحياة، وحقيقة ما فيه أهل العلم ورجال الدين: من طلب الجاه والرئاسة، ونيل الحَظْوَةِ عند أهل الحكم والسياسة، والجدل الفارغ، والنقاش الحادّ، والاكتفاءِ بمسائل الفروع والأحكام، والانصراف عن علم الآخرة، وتهذيب النفس، وحقيقة ما فيه المتندبون للإصلاح والدعوة من الكلام المزخرف، واللفظ المسجع، والقصص الملهية.

ورأى عمومَ الفساد، وغفلة الناس، وسكوتَ العلماء، وفقدان النذير؛

(١) من أجلِّ هذه الكتب كتاب (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) في عشرين مجلَّداً للعلاَّمة السيد مرتضى الزَّبيدي البلكرامي الهندي (م١٢٠٥هـ) وقد اشتمل على مادةٍ غزيرةٍ فيما يتَّصل بالعلوم الدينية والأدبية.

(٢) راجع: تلبيس إبليس، لابن الجوزي.

فانبعث في نفسه داعية قوية لتأليف هذا الكتاب، الذي يكشف عن الناس الغطاء، ويبيِّن لكل طبقةٍ من طبقات الأمة ما فيه هذه الطبقة من أوهامٍ وأحلامٍ، ويكون دعوة صارخة سافرة إلى الاستعداد للموت، والتأهُّب للآخرة، والأخذ بلباب الدين وحقيقته، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه، يقول رحمه الله:

«فأدلةُ الطريق هم العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبق إلا المتمرِّسون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستهواهم الطغيان، وأصبح كلُّ واحدٍ بعاجل حظه مشغوفاً؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً؛ حتى ظلَّ علمُ الدين مندرساً، ومنار الهدى في منطقة الأرض منطمساً.

ولقد خيلوا إلى الخلق أنْ لا علم إلا فتوى حكومةٍ تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو الجدل يتذرَّع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجعٌ مزخرفٌ يتوسَّل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدةً للحرام، وشبكةً للحطام.

فأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح، مما سمَّاه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمةً، وعلماً وضياءً ونوراً، وهدايةً ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطويّاً، وصار نسياً منسيّاً، ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، وخطباً مدلهمّاً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً لإحياء علوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين»[1].

نقد المجتمع والحسبة عليه:

وكان لا بدَّ للإصلاح الذي نهض له الغزالي، وجاشت له نفسه، وتحرَّكت مواهبُه، أن يعرف المجتمع الإسلاميُّ مواضع الضعف والفساد في حياته، ويعرف علله وأدواءه، وكان لا بدَّ لذلك من أن تعرف طبقاته المختلفة، كيف لَبَّسَ عليها

(١) إحياء علوم الدين: ١/٣، طبع الحلبي.

إبليس؟ وما هي الأوهامُ التي تعيشُ فيها؟ وكيف تغيَّرتْ المفاهيمُ الدينية؟ وكيف تشوَّهت الحقائق؟ وكيف تشاغلَ الناسُ بالظواهر والأشكال والرسوم؟ وكيف ابتعدوا عن الحقائق والمقاصد، حتى أصبح المجتمع كله ـ إلا من عصم الله ـ في شغلٍ شاغلٍ عن الآخرة، وما ينفع فيها وما يلزم لها؟ وأصبح المفكرون في أمور الآخرة، والساعون لرضى الله تعالى قلَّةً قليلة.

عرف الغزالي هذا قبل أن يؤلِّف الكتاب؛ فنظر إلى المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة؛ فبيَّنَ بكلِّ صراحةٍ وقوةٍ ما وقع فيه من انحرافٍ وابتعادٍ عن الجادة، وتناوله طبقةً طبقةً، فذكر أمراضها ومغالطاتها، وميَّزَ بين المقاصد والغايات، والوسائل والآلات، وقسَّم العلوم: بين العلوم الدينية، وبين العلوم الدنيوية، وبين العلوم المحمودة، والعلوم المذمومة، وبين فرض العين، وفرض الكفاية، ونبَّه على ما هو فرضٌ ومتعينٌ في زمانه، لا يسعُ العالم تركه، وما فيه متَّسعٌ ومندوحةٌ، وذكر العلل التي تخصُّ الأغنياء وأهل اليسار، وذكر أوهامهم وغرورهم، وانتقد الملوك والأمراء بشجاعةٍ، وأنكرَ عليهم مظالمهم وأعمالهم المخالفة للشرع، وقوانينهم المعارضة للدين، وذكر شيئاً كثيراً من أمراض العامة، والمنكرات الفاشية في مختلف الطبقات، والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية، والبدع المنتشرة؛ وبذلك كان هذا الكتابُ موسوعةً إسلاميةً اجتماعيةً، وأوسع كتابٍ وأقواه في نقد المجتمع والدعوة إلى الإصلاح.

العلماء ورجال الدين:

يعتقد الغزالي أنَّ التبعةَ الكبرى في هذا الفساد الشامل؛ والضعف في الدين والانحلالَ في الأخلاق، تقع على العلماء ورجال الدين، وهم السبب الأول في فساد هذه الأوضاع؛ لأنَّهم ملحُ الأمة، وإذا فسد الملح فما الذي يصلحه؛ ويتمثَّلُ الغزالي ببيتٍ خوطب فيه العلماء:

يا معشرَ القرَّاءِ ياملحَ البلد ... ما يُصْلِحُ الملحَ إذا الملحُ فَسَدْ

ويذكر كيف مرضت قلوبُ الناس، واشتدَّت الغفلة عن المعاد، ويذكر أسبابَ ذلك، فيذكر منها مرض العلماء واعتلالهم، وهم أطباء القلوب، يقول:

«والثالثة: ـ وهو الداء العضال ـ فقدُ الطبيب؛ فإنَّ الأطباءَ هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً، وعجزوا عن علاجه».

ويقول في موضعٍ آخر:

«فإنَّ الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلَّما يلتفتُ إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرضُ مزمناً، واندرس هذا العلمُ، وأنكر بالكلية طبّ القلوب، وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حبِّ الدنيا، وعلى أعمالٍ ظاهرُها عبادات وباطنها عادات ومراءاة»[1].

ويردُّ الغزالي فساد الملوك والأمراء، إلى ضعف العلماء، وإهمالهم لواجبهم، يقول: «وبالجملةِ إنَّما فسدت الرعيةُ بفسادِ الملوك، وفسادُ الملوك لفسادِ العلماء، فلولا قضاة السوء وعلماء السوء، لقلَّ فسادُ الملوك، خوفاً من إنكارهم»[2].

ويلوم الغزاليُّ العلماءَ على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلمة الحقِّ عند سلطانٍ جائرٍ، ويعلِّلُ ذلك بوقوع العلماء في شباك الأمراء، وحبهم للدنيا، وطلبهم للجاه.

يقول ـ بعد ما يروي حكاياتٍ تدلُّ على شجاعة علماء السلف، وإنكارهم على الملوك والكبراء ـ:

«فهذه كانت سيرةُ العلماء وعاداتُهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين، لكنَّهم اتَّكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلمّا أخلصوا لله النيَّة أثَّر كلامهم في القلوب القاسية، فليَّنها، وأزال قساوتها.

وأمَّا الآن فقد قيدت الأطماعُ ألسنَ العلماء، فسكتوا، وإن تكلَّموا لم تساعد أقوالُهم أحوالَهم، فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حقَّ العلم لأفلحوا،

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٥٤.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٥٤.

ففسادُ الرعايا بفساد الملوك، وفسادُ الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حُبِّ المال والجاه، ومن استولى عليه حبُّ الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعان على كل حال»[1].

لاحظ الغزالي ـ وقد قضى مدةً طويلةً في التدريس والإفتاء، وعاش بين العلماء وخبر سيرتهم ـ أنَّه قد شُغِلَ الناسُ بالجزئيات الفقهية، والمسائل الخلافية، ووقع الاكتفاءُ بعلم الفقه والفتيا، وانصرف بذلك العلماء وطلبة العلم عن العلوم النافعة، والأشغال المفيدة الأخرى، وشُغِلوا عن العلم الذي يصلحون به نفوسهم، وينالون به سعادة الدنيا والآخرة، وجهلوه، يقول:

«ولو سُئل فقيهٌ عن معنًى من هذه المعاني، حتى عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكُّل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقُّف فيه، مع أنَّه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة.

ولو سألته عن اللعان، والظهار، والسبق، والرمي، لسرد عليك مجلَّداتٍ من التفريعات الدقيقة، التي تنقضي الدهور، ولا يُحتاجُ إلى شيءٍ منها، وإن احتيجَ لم تخلُ البلدُ ممن يقوم بها، ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزالُ يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً، وفي حفظه ودرسه، ويغفلُ عمَّا هو مهمٌ لنفسه في الدين، وإذا رُوجعَ فيه، قال: اشتغلتُ به لأنَّه علم الدين، وفرضُ الكفاية، ويلبِّسُ على نفسه وعلى غيره في تعلُّمه.

والفطن يعلم أنَّه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية، لقدم عليه فرض العين، بل قدَّم عليه كثيراً من فروض الكفايات، **فكم من بلدةٍ ليس فيها طبيبٌ إلا مِنْ أهل الذمَّة! ولا يجوزُ قبولُ شهادتهم فيما يتعلَّق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغلُ به، ويتهافتون على علم الفقه، لا سيَّما الخلافيات والجدليات؛ والبلد مشحونٌ من الفقهاء بمن يشتغلُ بالفتوى، والجواب عن الوقائع.**

فليت شعري! كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض الكفاية قد قام

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ١٣٢.

به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سببٌ إلا أن الطبَّ ليس يتيسَّر الوصول به إلى تولِّي الأوقاف والوصايا، وحيازة مال الأيتام، وتقلُّد القضاء والحكومة، والتقدم على الأقران، والتسلُّط به على الأعداء؟»[1].

ولاحظ كذلك ـ وقد شاهد بعينه ـ أنَّه قد نفقت سوق المناظرات في الفقه والعقائد وعلم الكلام، وطغت على كل شيءٍ، حتى أصبحت زينة الأعراس والمآتم، ومجالس الملوك والأمراء، وأصبحت كسباق الخيل، ونطاح الأوعال، وتناقر الديكة، يتفرَّج عليه الأغنياء والأمراء.

وقد ذكر أنَّ عظم إقبال العلماء على هذا الفن، وبراعتهم فيه، لرغبةِ الملوك والأمراء في ذلك، وتطوَّرت مع تطور رغبة الأمراء واتجاهاتهم، وإنَّما الملك سوقٌ يجلبُ إليها كل بضاعةٍ تروج فيها، وهو في ذلك يظهر مؤرخاً دقيق النظر، قوي الملاحظة، يقول بعد ما ذكر الدور الأول:

«ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء، من يسمع مقالات الناس، في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعُلمتْ رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام؛ فأكبَّ الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التصانيف، ورتَّبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذبُّ عن دين الله، والنضال عن السنَّة، وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أنَّ غرضهم من الاشتغال بالفتاوى الدين، وتقلد أحكام المسلمين؛ إشفاقاً على خلق الله، ونصيحة لهم.

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور، من لم يستصوب الخوض في الكلام، وفتح باب المناظرة فيه؛ لما كان قد تولَّد من فتح بابه من التعصُّبات الفاحشة، والخصومات الفاشية، المفضية إلى إهراق الدماء، وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص؛ فترك الناسُ الكلام وفنون العلم، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع

(١) الإحياء: ٣/ ١٢.

مالك، وسفيان، وأحمد ـ رحمهم الله تعالى ـ وغيرهم، وزعموا أنَّ غرضهم استنباط دقائق الشرع، وتقرير علل المذهب، وتمهيد أصول الفتاوى. وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتَّبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن، ولسنا ندري، ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمامٍ آخر من الأئمة، أو إلى علمٍ آخر من العلوم، لمالوا أيضاً معهم، ولم يسكتوا عن التعليل بأنَّ ما اشتغلوا به هو علم الدين، وأنْ لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين»[1].

وتكلَّم الغزالي بعد ذلك بتفصيلٍ عن آفات المناظرة، وما يتولَّدُ منها من مهلكاتِ الأخلاق، وقد عرف ذلك عن تجربةٍ واختبارٍ؛ فقد كان فارس هذا الميدان، وإماماً من أئمة هذا الشأن، وكلامه كلامُ خبيرٍ مجرِّبٍ[2].

وقد فطن الغزالي ـ لذكائه الباهر وتجربته العلمية ـ أنَّ من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر، وبعدهم عن الحقائق، هو أنه قد فشا في هذا العصر استعمالُ كلمات القرآن والحديث في غير محلها، وفي غير معناها الأصيل القديم، وصار يُفْهَمُ منها ما لم يكن يفهم في العصر الأول؛ يعقد في كتاب الإحياء فصلاً خاصًّا في بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم، ويقول في مفتتحه:

«اعلم أنَّ منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريفُ الأسامي المحمودة، وتبديلها، ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معانٍ غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظٍ: **الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة**، فهذه أسامٍ محمودة، والمتَّصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنَّها نقلت الآن إلى معانٍ مذمومةٍ؛ فصارت القلوب تنفر عن مذمَّةِ من يتَّصف بمعانيها، لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم»[3].

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ١٩.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٧ـ٣٨.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٠ـ٤٣.

ثم شرح أنَّ اسم الفقه كان يطلقُ في العصر الأول على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدَّة التطلُّع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

فخُصِّصَ في هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها.

وكان لفظ العلم يطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، وتصرَّفَ فيه أهلُ الزمان بالتخصيص، حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها.

وكان التوحيد عند الأولين، هو أن يرى الإنسانُ الأمورَ كلَّها من الله عزَّ وجلَّ رؤيةً تقطعُ التفاته عن الأسباب والوسائط؛ فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جلَّ جلاله، وقد جُعِلَ الآن عبارةً عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدُّق فيها، بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات، وتأليف الإلزامات؛ حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وتسمَّى المتكلمون العلماء بالتوحيد.

والتذكير هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه، وهو القصص والأشعار، والشطح والطامات.

والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فصار اسم الحكيم يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم؛ حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق»[1].

وبعد هذه المقارنة بين معاني هذه الألفاظ القديمة ومحل استعمالها، وبين معانيها المحدثة ومحل استعمالها، وبيان التحريف الذي وقع في إطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقول:

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨.

«فقد عرفتَ كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة، فكلُّ ذلك من تلبيس علماء السوء بتبدُّل الأسامي، فإن اتبعت هؤلاء؛ اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفاتٍ إلى ما عرف في العصر الأول، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمَّى حكيماً؛ فإنَّ اسمَ الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ»[1].

وهكذا يهيب الغزالي بالعلماء، في قوةٍ وصراحةٍ وشجاعةٍ وإخلاصٍ وعمقٍ وتحليلٍ علميٍّ، ويثير فيهم الغَيرة والشعور، ويستحثُّهم على الرجوع إلى مركزهم في الأمة، وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية على المجتمع الإسلامي، والحسبة على الحكومة والحكَّام، والخواصّ والعوام، معتقداً بأنَّهم حجر الزاوية في إصلاح المجتمع، وبصلاحهم صلاح العالم، وبفسادهم فساد العالم، ثم يلتفت إلى السلاطين والأمراء، لأنَّهم الركن الثاني في إصلاح النوع الإنساني.

الملوك والأمراء:

لقد كانت الحكومات في عصر الغزالي حكوماتٍ شخصيةً مستبدَّةً، وكان نقد السلاطين على سياستهم وأموالهم وتصرُّفاتهم مجازفةً بالحياة، ومغامرةً قد تودي إلى الحبس والإهانة والعقوبات المؤلمة، وكثيراً ما تودي إلى القتل والنفي.

وكان الذي يرفض وظيفةً أو منصباً يقدِّمه السلطان، أو يرفض عطيَّةً سلطانيةً، يعتبر في أكثر الأحيان خارجاً على الحكومة، غيرَ وفيٍّ لها.

ولكن كل ذلك مما كان يعلمه الغزالي ـ وهو العالم المطلع الواعي ـ لم يمنعه من إبداء رأيه الصريح في أموال الملوك والسلاطين في عصره، وعن نقد سياستهم المالية. يقول في (الإحياء):

(١) انظر: الإحياء، بيان ما بدل من ألفاظ العلوم: ١/ ٢٨ ـ ٣٤.

«إنَّ أموال السلاطين في عصرنا حرامٌ كلُّها أو أكثرها، وكيف لا، والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة؟ ولا وجود لها! وليس يدخل منها في يد السلطان، ولم يبقَ إلا الجزية، وإنها تؤخذ بأنواعٍ من الظلم، لا يحل أخذها به، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه، والوفاء له بالشرط، ثم إذا نسب ذلك إلى ما ينصبُّ إليهم من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره»[1].

ويعرف الغزالي ـ وهو الذي عاش بين العلماء ـ أنَّ كثيراً من أهل العلم، والمتَّصلين بالملوك والأمراء، يستدلون بقبول كثيرٍ من السلف أموالَ السلاطين وجوائزهم وصلاتهم، فيبيّن الفرق بين الأوضاع الأولى وأوضاع العصر، ويثبت أنه لا يصحُّ القياس على أحوالهم، يقول:

«إنَّ الظلمة في العصر الأول ـ لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين ـ كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوِّقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤالٍ وإذلالٍ، بل كانوا يتقلَّدون المنَّة بقبولهم، ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرّقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغْشَوْن مجالسهم، ولا يكثِّرون جمعهم، ولا يحبُّون بقاءهم؛ بل يدعون عليهم، ويطلقون اللسان، وينكرون المنكرات منهم عليهم؛ فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم، ولم يكن بأخذهم بأس.

فأما الآن، فلا تسمح نفوسُ السلاطين بعطيَّةٍ إلا لمن طمعوا في استخدامهم، والتكثّر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمُّل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء، والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردُّدِ في الخدمة ثانياً، وبالثناء والدعاء ثالثاً، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له

(١) انظر: الإحياء، ما بدل من ألفاظ العلوم: ٢/ ١٢٢.

على أعدائه سادساً، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعاً، لم يُنْعَمْ عليه بدرهمٍ واحدٍ، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً؛ فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنَّه حلال، لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يُعلمُ أنَّه حرامٌ ويشكُّ فيه! فمن استجرأ على أموالهم، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدادين»[1].

وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تُعرَفُ إلا في جوِّ الحكومات الشخصية الرهيب، الذي كانت كلمةٌ واحدةٌ تصدر من عالمٍ أو مؤلِّفٍ في نقد ملكٍ أو حاكمٍ تطيح بحياته.

ولم يكتفِ الغزالي بالدعوة إلى الامتناع من قبول العطايا السلطانية ورفضها، بل دعا إلى الاعتزال عن السلاطين الجائرين، واعتقادِ بغضهم، وكراهة حياتهم، والابتعاد عن المتَّصلين بهم، يقول في (الإحياء):

«الحالة الثالثة: **أن يعتزل عنهم؛ فلا يراهم ولا يرونه، وهو الواجب، إذ لا سلامة إلا فيه؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، ولا يحبّ بقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرّب إلى المتَّصلين بهم؟**»[2].

مصارحته السلاطين والوزراء بالحق وحثهم على الإصلاح:

ولم يقتصر الغزالي على إبداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته؛ بل أبدى رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك، كلَّما سنحت له فرصةٌ، وقد قال للسلطان (سنجر بن ملك شاه السلجوقي) الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها:

«**أسفاً! إنَّ رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقضُّ بالأطواق الذهبية**»[3].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٢٨.
(٣) رسائل الإمام الغزالي بالفارسية.

وقد كتب إلى أخيه الأكبر (محمد بن ملك شاه) ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رسالةً ذكَّره فيها بمسؤوليته، وحذَّره من عقاب الله وغضبه، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة.

وكان الوزير في الحكومات الشخصية في الشرق هو الذي يملك زمام المملكة، وبيده الحلُّ والعقد؛ فإذا صلح صلحت الدولة، وإذا فسد فسدت الدولة، وكان الغزالي يعرف هذا جيّداً، وقد عاصر (نظام الملك الطوسي) وزير المملكة السلجوقية العظيمة ومديرها، وعاصر أبناءه؛ فاعتنى بوزراء المملكة أكثر مما اعتنى بالملوك؛ لأنَّهم مفتاح المملكة، وموجهوها، والمباشرون للأمور، وكتب إلى وزراء المملكة رسائل مستفيضةً، ولفت نظرهم بكلِّ جرأةٍ وصراحةٍ إلى فساد الأوضاع، وجور الحكَّام وابتزازهم للأموال، وما كان يعانيه الشعب من حيف الأمراء، وغفلة المسؤولين، وطمع الموظفين، وحذَّرهم عقاب الله وبطشه، وذكَّرهم بمصير الوزراء السابقين، والحكَّام الظالمين، وحثَّهم على إصلاح الجهاز الإداري، وتنظيم الحكومة، والضرب على يد الظلمة.

ورسائله الفارسية التي وجَّهها في هذا المعنى إلى الوزراء مثالُ الشجاعة والصدع بالحق، ومثالٌ لقوة الإنشاء وبلاغة التعبير. ومنها رسالةٌ إلى فخر الملك، يقول فيها:

«**اعلم أنَّ هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم، ولما بلغ الناس توجهك من إسفرايين ودامغان خافوا، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم؛ لما كانوا يتوقَّعون من إنصافٍ منك، واستطلاعٍ للأحوال، ونشاطٍ في الإصلاح. أما وقد وصلت إلى طوس، ولم يرَ الناسُ شيئاً فقد زال الخوف، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار، وتشجع الظالمون، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك، فاعلم أنَّه عدو دينك**».

«**واعلم أنَّ دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرَّبٌ، وقد نصحتُ للعميد كثيراً؛ ولكنَّه لم يقبل النصيحة، وأصبح عبرةً للعالمين، ونكالاً للآخرين.**

اعلم يا فخر الملك! أنَّ هذه الكلمات لاذعةٌ مُرَّةٌ قاسيةٌ لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء، فاقدرها قدرها؛ فإنك لا تسمعها من غيري، وكل من يقول غير ذلك، فاعلم أن طمعه حجابٌ بينه وبين كلمة الحق».

وكتب إلى (مجير الدين): «إنَّ إغاثة الخلق واجبةٌ على الجميع؛ فقد تجاوز الظلم على الحدود، ولم أستطع أن أشاهد هذا الظلم، فهاجرت من طوس ولي سنة؛ حتى لا أشاهد هؤلاء الظلمة، الذين لا يحملون رحمةً، ولا يراعون حرمةً، وقد ألجأتني بعض الضرورات إلى زيارة البلد؛ فوجدت الظلم مستمراً لم ينقطع»[1].

ويقول في هذا الكتاب: «لقد بلغت المديةُ العظمَ، وبلغ السيلُ الزُّبى، وكاد المسلمون يُستأصلون، وإنَّ ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد ـ أمانةً من الملك ـ أخذوا أضعافها من الرعية، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس، ولم يصل منها شيءٌ إلى السلطان»[2].

ولم يقتصر الغزالي على بذل النصيحة لملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الديني، وتحذيرهم من سخط الله، بل كان يبحث ـ لعلو همته وحرصه على إقامة الدين وإسعاد المسلمين ـ عن دولةٍ فتيةٍ تقوم على أساسٍ دينيٍّ متينٍ، وفكرٍ دينيٍّ سليمٍ، وكأنَّه كان يائساً من الحكومات الإسلامية المعاصرة؛ فقد سرى فيها الوهن، واستولى عليها الفساد، وقد قامت في عصره دولةٌ نشيطةٌ بريئةٌ من كثيرٍ من علل الحكومات الإسلامية القديمة، وهي دولة الملثَّمين[3] في المغرب، كان على رأسها رجلٌ هو أقوى ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم، هو (يوسف بن تاشفين) صاحب مراكش.

ويحدثنا ابن خلكان، أنَّ الغزالي قصده لعله يتعاون معه على توجيه الحكومة، يقول ابن خلكان: وبلغني أنَّ الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي

(١) رسائل الإمام الغزالي بالفارسية.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) دولة المرابطين. (الناشر)

ـ تغمده الله تعالى برحمته ـ لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم على التوجُّه إليه؛ فوصل إلى الإسكندرية، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فوصله خبرُ وفاته، فرجع عن ذلك العزم»[1].

وإذا فات الغزالي أن يجتمع بيوسف بن تاشفين ويوجهه، فقد ساق الله إليه ـ وهو في بلده ـ من قدَّر الله على يده قيام دولةٍ جديدةٍ تقوم على الدعوة والإصلاح، وعلى الخير والصلاح، وهو محمد بن عبد الله بن تومرت، الذي كان على يده زوال دولة الملثَّمين التي فسدت وجارت بعد مؤسسها يوسف بن تاشفين، وقيام دولة الموحدين، وقد قال عنه ابن خلدون:

«ولقي ـ فيما زعموا ـ أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره، فأراده عليه، لما كان في الإسلام يومئذٍ بأقطار الأرض من اختلال الدولة، وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة، والمقيم للملة، بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التي يكون بها الاعتزاز والمنعة».

وإذا صحَّت هذه الرواية، فإنَّ للغزالي فضلاً ونصيباً في توجيه الرجل الذي كان صاحب دعوةٍ وحركةٍ في المغرب، انتهت إلى قيام دولةٍ فاضلةٍ تتمسك بالدين وتقيم القسط، وتمنع الظلم، وترفع شعائر الإسلام[2].

طبقات المسلمين الأخرى:

ولم يكن نقد الغزالي مقتصراً على العلماء والسلاطين والأمراء؛ بل إنَّه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصر كله، فذكر ما انتشر فيه من بدعٍ ومبتكراتٍ وأوهامٍ ومغالطاتٍ، ويدل كتاب (الإحياء) على أنَّه ـ وإن كان نشأ نشأةً علميةً، وعاش بين الكتب والتلاميذ ـ كان متَّصلاً بالمجتمع اتصالاً وثيقاً، وقد درسه دراسةً عميقةً، وكان واسع الاطلاع على المدنية في عصره، وأساليب الحياة وأجواء الطبقات، وإنَّ ما ذكره من أخلاق مختلف الطبقات وعللها ليدل دلالةً

(١) وفيات الأعيان، ترجمة يوسف بن تاشفين.
(٢) اقرأ أخبار عبد المؤمن بن علي، ودولة الموحدين في تاريخ ابن خلدون، الكتاب الثالث، أخبار البربر.

واضحةً على قوة ملاحظته، ودقة نظره. وقد عقد في كتابه باباً مستقلاً في المنكرات المألوفة في العادات والتقاليد التي ألفها الناس؛ فلا يشعر كل واحدٍ بأنها منكراتٌ دخيلةٌ على الحياة الدينية، وقد دقَّقَ فيها، واستوعبها استيعاباً لا يقدر عليه إلا من عاشر الناس معاشرةً طويلةً، خبر الحياة، ودرسها دراسةً واسعةً عميقةً، ذكر فيها منكرات المساجد، ومنكرات الأسواق، ومنكرات الشوارع، ومنكرات الحمامات، ومنكرات الضيافة، والمنكرات العامة[1].

وخصص الغزالي جزءً من الكتاب بذمِّ الغرور، ذكر فيه أصناف المغترين وفِرَقَ كل صنف، ذكر منهم المغترين من أهل العلم وفرقهم، والمغترين من المتصوفة، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس في هذه الطبقات وأصنافها، وذكر من أفكارهم ومرافقهم وعقدهم النفسية ما لا يطلع عليها إلا عالمٌ كبيرٌ من علماء النفس، ومصلحٌ اجتماعيٌّ ذكيٌّ له تجارب طويلة ونظر نافذ.

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غلوِّهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية، والخلافيات، والكلام، والجدل، والتعمق في العلوم الآلية: كالنحو، واللغة، والشعر، والغريب، والانهماك به.

وانتقد الصوفية بالاكتفاء بحفظ أقوال المشايخ وأخبارهم.

ولاحظ أنَّ هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها.

فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنَّه ليس من علوم الشرع، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنَّها علوم؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع[2].

وذكر من التباسات الصوفية ومبالغاتهم شيئاً كثيراً يدل على إنصافه وتدقيقه[3].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٢٩٤ ـ ٣٠٠.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٣٤٣.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٣٤٥ ـ ٣٥٠.

وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدلُّ على النظر العميق، والفهم الديني الصحيح، يقول:

«ربَّما يحرصون على إنفاق المال في الحج، فيحجون مرةً بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً؛ ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب! يهون السفر عليهم، ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار، وجاره مأسورٌ بجنبه لا يواسيه»[1].

ويقول:

«وفرقةٌ أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها، يحفظون الأموال، ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية، التي لا يحتاج فيها إلى نفقةٍ، كصيامِ النهار وقيام الليل، وختم القرآن وهم مغرورون، لأنَّ البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغنٍ عنها، ومثاله مثال من دخلت في ثوبه حيَّةٌ، وقد أشرف على الهلاك، وهو مشغولٌ بطبخ السكنجبين ليسكّن به الصفراء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين!؟

ولذلك قيل لبشر الحافي: إنَّ فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة؛ فقال: المسكين ترك حاله، ودخل في حال غيره؛ وإنَّما حال هذا إطعامٌ للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدينار ومنعه للفقراء»[2]!.

ويقول عن العامة وطوائف من الأغنياء والفقراء:

«وفرقةٌ أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء، اغترّوا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أنَّ ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادةً، ويظنُّون أنَّ لهم على مجرَّد سماع الوعظ ـ دون العمل ودون الاتعاظ ـ أجراً، وهم

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٥١.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٣٥٢.

مغرورون: لأنَّ فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإن لم يهيج الرغبة، فلا خير منه، والرغبة محمودةٌ؛ لأنَّها تبعث على العمل، فإن ضعفتْ عن الحمل على العمل، فلا خير فيها. وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له.

وربَّما يغترّ بما يسمعه من الوعظ من فضل حضور المجلس، وفضل البكاء، وربَّما تدخله رقَّةٌ كرقَّةِ النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً، فلا يزيد على أن يصفِّق بيديه ويقول: ياسلام سلِّم! أو نعوذ بالله! أو سبحان الله! ويظنُّ أنَّه قد أتى بالخير كلِّه وهو مغرور.

وإنَّما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء، فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصفُ له الأطعمة اللذيذة الشهيةَ ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً، فكذلك سماع وصف الطاعات ـ دون العمل بها ـ لا يغني من الله شيئاً، فكلُّ وعظٍ لا يغيِّرُ منك صفةً تغييراً يغير أفعالك؛ حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً، وتعرض عن الدنيا، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلةً لك كنت مغروراً»[1].

وفي هذه القطع كلها يظهر الغزالي مصوراً حاذقاً، يتناول بريشته البارعة مجتمع عصره، فيصور مخايله وقسمات وجهه، ويجسِّم دقائقه وتجاعيده، ويظهر في ذلك كله ذكاؤه، وسعة اطِّلاعه، ودقَّة ملاحظته، وبراعة تصويره، وسلامة تفكيره.

مكانته بين علماء الأخلاق:

ويدلُّ كتاب (الإحياء) على مكانته العالية بين علماء الأخلاق، وقد بحث عن الأخلاق ودوافعها ومنشئها وأصنافها بحثاً دقيقاً عميقاً، وتكلَّم في أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاماً يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية.

وإنَّ من يقرأ بحثه المستفيض في بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع،

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٥٢.

حتى لا يخلو عنه قلبٌ إلا بشديد المجاهدة، ليخضع ويقرّ بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية وتحليله العلمي، وعقله الكبير[1].

وقد استحقَّ الغزالي ببحوثه العميقة في الأخلاق، وبتأليفه العظيم (إحياء علوم الدين) أن يوضع في الصفِّ الأول من علماء الأخلاق، وأن يكون موضع دراسةٍ وعنايةٍ من الباحثين في علم الأخلاق، وعلم النفس، والمؤرِّخين لهذا الموضوع

كتاب ترغيب وتهذيب:

ومن أشدُّ أجزاء الكتاب تأثيراً في النفس، ما يشتمل على الترغيب والترهيب، يصوِّرُ الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة، والحاجة إلى الإيمان والعمل الصالح وتهذيب النفس، ويحذِّرُ من أمراض القلب، ويحاسب النفس، ويدافع عنها، ويعتذر كأحسن ما يعتذر صديقٌ محبٌّ، ومحامٍ بارع.

ثم يجيب عن ذلك ويقيم عليها الحجة، كأحسن ما يفعل ذلك قاضٍ نابغةٌ، ومشرِّعٌ بصيرٌ.

ثم يرقِّقُ القول، ويصف العلاج، كأحسن ما يفعل طبيبٌ حاذقٌ مربٌّ عطوف، ويجيء بالعجب العجاب، ويسحر الألباب، ويدمع العيون، ويرقق القلوب.

وقد أثرت هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوف، وأحدثت في حياتهم انقلاباً وتحوُّلاً عظيماً، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها[2].

وقد أصبح كتاب (الإحياء) بذلك كله كتاب إصلاحٍ وتربيةٍ، وكأنَّ المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب ـ كمرشدٍ ومربٍّ ـ مغنياً عن غيره، قائماً مقام المكتبة الإسلامية؛ لذلك جعله يحتوي على العقائد، والفقه، وتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، والحصول على مرتبة الإحسان.

(١) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٤.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٣٥٦ ـ ٣٥٨.

تضرر بعض الناس من كتاب الإحياء:

ولكن مما يلاحظُ أنَّ كثيراً ممن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب، أو يكثر من قراءته ويشغف به، ينشأ عنده غلوٌّ في الزهد والتقشف، ومخالفة النفس في المباحات، والكراهة للحياة، والإكثار من الرياضات والمجاهدات؛ حتى تتأثر بذلك صحته وعقله، خصوصاً في هذا العصر، الذي ضعفت فيه القوى والأجسام.

لذلك يمنع بعض المربين الحكماء من مطالعة هذا الكتاب في بداية الحال، خصوصاً الذين عندهم تأثرٌ قويٌّ، وانفعالٌ سريعٌ؛ ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ الغزالي صنَّفه في حالةٍ قد غلب عليه فيها الخوف والهيبة، وكان متأثِّراً شديدَ التأثر؛ فجاء كلامه صورةَ نفسيته وتأثره، وقد جمع فيه أقوالاً كثيرةً في الزهد وقهر النفس وعصيانها، لا تخلو من المبالغة والإسراف.

والحقّ، أنَّ السيرة النبوية ـ ويدخلُ فيها الحديث الصحيح ـ على صاحبها الصلاة والتحية ـ هي المدرسة الوحيدة التي تربي تلاميذها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح. و«كلٌّ يؤخذُ من قوله ويردُّ إلا صاحبُ هذا القبر»[1]. ويمثل ذلك بعض التمثيل قدوةً دينيةً تجمع بين العلم الراسخ، والسيرة المستقيمة، والقلب الحيّ الفائض قد تشرَّبَ السيرة، وتذوَّقَ السنَّة، وذاق حلاوة الإيمان، وحاز اليقين.

ولم يزل ولا يزال الدين يؤخذ من (الإحياء) ويقوم بالإحياء، ولم يكن الإنسان في دورٍ من الأدوار غنياً عن القدوة والصحبة.

فضل كتاب الإحياء:

وعلى ما تعقب على الغزالي في (الإحياء) من إيراد أحاديث ضعيفة: بل موضوعة في كثيرٍ من الأحيان[2]، وأشياء من كلام الصوفية الممعنة في الغلوّ،

(١) من كلام الإمام مالك رضي الله عنه.

(٢) قام الحافظ الإمام زين الدين العراقي صاحب الألفية بتخريج أحاديث الإحياء وتعريف درجتها، سماه «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»، طبع مع الإحياء بمطبعة مصطفى البابي الحلبي.

وهضم النفس وترك المباحات، وقد لا تتفق مع أصول الدين، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة... إلى غير ذلك من مآخذ تعقَّبها العلاّمة الحافظ ابن الجوزي[1]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[2]، مع اعترافهما بفضل الكتاب؛ فإنَّ كتاب (الإحياء) في مقدمة الكتب الإسلامية التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كل عصرٍ وجيلٍ، وأثَّرت في النفوس تأثيراً لا يعرف إلا عن كتبٍ معدودةٍ، ولا يزال الكتابُ الذي يكثر قرَّاؤه والمعجبون به والمتأثرون به في أكثر البلاد، ولا يزال ثروةً زاخرةً في الدين، ومصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية.

شخصية الغزالي وفضله:

لا شكَّ أنَّ (الغزالي) من نوابغ الإسلام وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي، ورجال الإصلاح والتجديد، الذين لهم فضلٌ كبيرٌ في بعث الروح الدينية، وإيقاظ الفكر الإسلامي، والدعوة إلى حقائق الإسلام وأخلاقه، وفي مقاومة الغزوات العقلية، التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي. ومهما قيل فيه، وقيل عنه، فإنَّ إخلاصه أسمى من أن يشك فيه.

وإنَّ علوَّ همته في جميع العلوم والنبوغ فيها، ثم علوّ همته في طلب الحقيقة واليقين، ثم علوّ همته في طلب الآخرة وتحقيق غاية الوجود، لا يزال موضع استغرابٍ وتقديرٍ وإكبارٍ من الجميع، وإنَّ ما خلَّفه من آثارٍ وتراثٍ علميٍّ ثروةٌ علميةٌ إسلاميةٌ لا يستهان بقيمتها، ولا ينكر فضلها في عصرٍ من العصور.

سلام الله على هذه الروح الزكية والهمة العالية والعقل الإسلامي الكبير! وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين[3].

* * *

(١) انظر: (المنتظم) لابن الجوزي: ٩/ ١٦٩ ـ ١٧٠، طبع دائرة المعارف حيدر آباد.

(٢) انظر: فتاوى ابن تيمية: ٢/ ١٩٤.

(٣) إلى هنا تنتهي المحاضرات التي ألقاها المؤلف في مدرج جامعة دمشق الكبير عام ١٧٣٥هـ ـ ١٩٥٦م. (الناشر)

مذهبه وخدمته ٢٢٦
مؤلفاته ٢٣٠
اجتهاده في العبادة ٢٣١
وفاته ٢٣١
الإمام أبو منصور الماتريدي ٢٣٢
العلماء الأشاعرة ونفوذهم في العالم الإسلامي ٢٣٢

المحاضرة السابعة

الانحطاط في علم الكلام، ازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة إلى متكلم جديد

الانحراف والانحطاط في علم الكلام ٢٣٧
شيوع الفلسفة في العالم الإسلامي ٢٣٨
الفلسفة اليونانية في الإسلام ٢٣٩
الفرق بين المعتزلة والفلاسفة ٢٣٩
فتنة الباطنية ٢٤٠
الفرق بين الظاهر والباطن ٢٤١
ثورة على النبوة المحمدية ٢٤٥
إخوان الصفا ٢٤٩
الحاجة إلى شخصية قوية جديدة ٢٥٢

المحاضرة الثامنة

حجة الإسلام الغزالي حياته ودراسته

نشأته ودراساته ٢٥٧
اعتزال الغزالي عن التدريس وخروجه في طلب السعادة واليقين ٢٥٩
بحث عن العلم اليقيني ٢٦٠

اختبار لعلم الكلام ٢٦٢
دراسة الفلسفة، ورأي الغزالي فيها ٢٦٢
اختبار للباطنية، ويأس الغزالي منها ٢٦٧
إلى التصوف ٢٦٩
الغزالي يغادر بغداد ٢٧١
الاستقرار على طريق الصوفية ٢٧٣
من الخلوة إلى الجلوة ٢٧٣
الفرق بين الحالتين ٢٧٥
بقية حياته ٢٧٦
وفاته ٢٧٧

المحاضرة التاسعة

حجة الإسلام الغزالي ناقد للفلسفة ومتكلم

خطة الغزالي في نقد الفلسفة ٢٨٠
تهافت الفلاسفة ٢٨٢
ميزة الكتاب ٢٨٥
تأثير الكتاب ٢٨٧
رده على الباطنية ٢٨٧
علم الكلام ٢٨٨

المحاضرة العاشرة

حجة الإسلام الغزالي مصلح اجتماعي

إحياء علوم الدين ٢٩٥
نقد المجتمع والحسبة عليه ٢٩٧
العلماء ورجال الدين ٢٩٨

الملوك والأمراء ٣٠٤
مصارحته السلاطين والوزراء بالحق وحثهم على الإصلاح ٣٠٦
طبقات المسلمين الأخرى ٣٠٩
مكانته بين علماء الأخلاق ٣١٢
كتاب ترغيب وتهذيب ٣١٣
تضرر بعض الناس من كتاب الإحياء ٣١٤
فضل كتاب الإحياء ٣١٤
شخصية الغزالي وفضله ٣١٥

المحاضرة الحادية عشرة

الإمام عبد القادر الجيلاني عصره، حياته، صفته، تأثيره

الحاجة إلى الدعوة الشعبية والإصلاح العام ٣١٩
مؤهلات الداعي العلمية ٣٢١
دراسته ونبوغه ٣٢٣
الإصلاح والإرشاد ٣٢٤
صفته وأخلاقه ٣٢٤
إحياء القلوب الميتة ٣٢٦
اشتغاله بالعلم، ونصرته للسنّة ٣٢٨
الاستقامة والتحقيق ٣٢٨
التفويض والتوحيد ٣٣٠
شفقته على الخلق ٣٣٢
دعوته للإسلام ٣٣٣
وفاته ٣٣٣

المحاضرة الثانية عشرة

الشيخ عبد القادر الجيلاني دعوته، إصلاحه وفضله

عصره ٣٣٧
التوحيد الخالص والاستخفاف بغير الله ٣٣٨
مكانة الدنيا في نظر الشيخ ٣٤٣
نقده للخلفاء والأمراء في عصره ٣٤٤
إنكاره على علماء السوء ٣٤٥
ذم المنافقين ٣٤٦
التوجع لدين الله ٣٤٦
البيعة والتربية ٣٤٧
دعاة الإسلام ومشاعل الإيمان ٣٥٠

المحاضرة الثالثة عشرة

غارة التتر على العالم الإسلامي، وظهور معجزة الإسلام

غارة التتر وأسبابها الحقيقية في ضوء القرآن ٣٥٥
أوضاع العالم العربي ومركز الخلافة في هذا العصر ٣٥٦
القسم الشرقي من المملكة الإسلامية ٣٦٢
خطأ الملوك الخوارزمية ٣٦٣
زحف التتر نحو العالم الإسلامي ٣٦٤
الجزء الشرقي للعالم الإسلامي بين التتر والدمار ٣٦٥
صاعقة نزلت على العالم كله ٣٦٨
تدمير بغداد ٣٦٩
التتر في الشام ٣٧٢
وقعة عين جالوت، وتراجع التتر عن مصر ٣٧٣